

بليخانوف

فلسفة التاريخ
المفهوم المادي للتاريخ

بليخانوف

فلسفة التاريخ

المفهوم المادي للتاريخ

جميع حقوق الطبع والاقتباس محفوظة

المقدمة

كان بليخانوف اول من نشر الماركسية في روسيا . فقد كتب في نهاية القرن التاسع عشر سلسلة من الابحاث الرامية الى نشر الافكار الماركسية ، والقضاء على تفوذ الشيعيين .

في كتاب « فلسفة التاريخ » ، يبين بليخانوف ان الفلسفة الماركسية تتبع بصورة طبيعية من التطور السابق للعلم والفلسفة ، وبعد القاء نظرة على المفهوم اللاهوتي ، يحلل بليخانوف افكار فلاسفة القرن الثامن عشر ، ومؤرخي عهد « عودة الملكية » ، والمثاليين الألمان . ويوضح تناقضات هذه المفاهيم وحدودها التاريخية الطبقية ، مع تبيان جوانبها التقدمية . ويظهر ان ماركس وحده استند فلسفة التاريخ على اساس علمي صحيح . فقد انطلق ماركس من تفحص انتقادي لتراث الماضي النظري ، وانمي هذا التراث ، وصاغ مذهباً ثورياً يعكس بأمانة قوانين تطور المجتمع ، ويمد البروليتاريا بسلاح نظري فعال . وهذا الكراس هو بالتالي صورة موجزة عن مؤلف بليخانوف المسهب « المفهوم الواحداني للتاريخ » .

وفي كتاب « المفهوم المادي للتاريخ » ، يوضح بليخانوف ، من خلال تحليله لاجد مؤلفات الكاتب الايطالي انطونيو لابريولا ، بعض القضايا الاساسية بالنسبة الى المادية التاريخية : فقد نظرية العوامل ، طبيعة الدولة ودورها ، قد فكرة الميرق ، التفاعل بين مظاهر الحياة الايدولوجية ، قوى الانتاج وعلاقات

الاتجاه ، دور العلاقات الاقتصادية والمصالح الاقتصادية . ولا يزال هذا التحليل
مثالاً كلاسيكياً رائعاً عن تطبيق المنهج الماركسي - اللينيني تطبيقاً علمياً خلاقاً .
والمعروف إن بلينخانوف قد ارتكب بعض الأخطاء وتطور باتجاه الانتهازية .
ولكن هذا التطور السياسي يجب أن لا ينسينا المؤلفات النظرية الفذة التي كتبها في
الوقت الذي كان فيه ماركسياً منسجماً .

وقد أشار لينين إلى ذلك في عام ١٩٢١ ، إذ قال : « .. لا يمكن للإنسان أن
يصبح شيوعياً حقيقياً واعياً ، ما لم يدرس كل ما كتبه بلينخانوف في الفلسفة ،
لأنه خير ما يوجد في مجمل تفكير الماركسي في جميع البلدان .

ملاحظة: جميع الشروح الواردة في هذا الكتاب هي من المعرب

فلسفة التاريخ

فلسفة التاريخ

عندما يستجمع المؤرخ ماضي النوع البشري وحاضره (واقصد بالمؤرخ واحداً من أولئك الذين لم يحرموا موهبة التعيم) ، يرى مشهداً عظيماً ورائعاً يجري أمامه . فأنتم تطعون بلا ريب أن العلم الحديث يفترض وجود الانسان على سطح الارض منذ الدور الجيولوجي الرابع اي على الاقل منذ ٢٠٠٠ سنة . ولكن اذا صرفنا النظر عن هذه الحسابات الافتراضية ، واذا قبلنا كما كان الناس يعتقدون في السابق ان الانسان قد ظهر على سطح الارض قبل الميلاد بحوالي ٤٠٠٠ سنة ، يكون لدينا زهاء ٢٠٠٠ جيل ظهروا الواحد تلو الآخر واختفوا كما تختفي الاوراق في القابة عند الخريف . ان كلا من هذه الاجيال ، بل كل فرد من كل جيل ، قد سعى لتحقيق اغراضه الخاصة ! فكل فرد ناضل في سبيل وجوده الخاص ووجود ذويه ، ومع ذلك حدثت حركة اجمالية ، حدث ما نسميه تاريخ النوع البشري . واذا اعدنا الى ذا كرتنا حياة اجدادنا ، اذا تصورنا مثلاً حياة رجال ذلك العرق الذي كان يقطن بمساكن البحيرات (١) ، واذا قارنا تلك الحياة بحياة سكان سويسرا الحاليين ، تلاحظ فرقاً هاملاً . فقد ازدادت المسافة التي تفصل الانسان عن اسلافه الشيبين بالفرد شيئاً كبيراً او صغيراً . فمن الطبيعي ان يتساءل المرء عن أسباب هذه الحركة وهذا التقدم .

١ - مساكن البحيرات : habitations lacustres مساكن كان يقيمها انسان

ما قبل التاريخ في البحيرات على اعمدة خاصة ، وما زالت بقاياها تشاهد في سويسرا

هذه المسألة الكبرى ، مسألة اسباب تقدم النوع البشري وحركته التاريخية ، هي التي تشكل موضوع ما كان يسمى سابقاً بفلسفة التاريخ ومن الافضل ان يسمى ، على ما يبدو لي ، مفهوم التاريخ اي التاريخ باعتبارها علماً ، التاريخ الذي لا يكتفي بمعرفة كيف حدثت الامور ، بل يريد معرفة لماذا حدثت الامور على نحو معين وليس على نحو آخر .

ولفلسفة التاريخ ، كسكل شيء آخر ، تاريخها ؛ أعني أن الناس الذين كانوا يهتمون في عهود مختلفة بمسألة سبب الحركة التاريخية ، قد أجابوا بأشكال مختلفة على هذا السؤال الكبير . لقد كان لكل عهد فلسفته الخاصة في التاريخ . وللمع ستمترضون علي بأنه كثيراً ما وجد ، في عهد تاريخي واحد ، عدة مدارس في فلسفة التاريخ ، لا فلسفة واحدة فقط . اني اوافق على ذلك ، ولكي ارجوكم ان تعتبروا ان المدارس الفلسفية المختلفة الخاصة بعهد تاريخي معين تشترك دائماً بشيء يتيح لنا بأن ننظر اليها كاجناس مختلفة من نوع واحد . مع العلم بان هنالك مدارس متبقية من العهود النابرة . ولتبسيط المسألة يمكننا اذن القول ان كل دور تاريخي له فلسفته الخاصة في التاريخ وستدرس بعضاً منها ، بادئين بالفلسفة اللاهوتية او المفهوم اللاهوتي لتاريخ .

المفهوم اللاهوتي للتاريخ

ماهي الفلسفة اللاهوتية او المفهوم اللاهوتي لتاريخ ؟ هذا المفهوم هو أكثر المفاهيم بدائية ، وهو مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالجهود الاولى التي بذلتها الفكر الانساني لاستشفاف العالم الخارجي . فان ابسط مفهوم يستطيع الانسان ان يكونه عن الطبيعة ، هو ان يرى فيها حوادث ناتجة عن فعل ارادة أو عدة ارادات شبيهة ب ارادته ، وليس ظواهر مترابطة تخضع لقوانين ثابتة . ويقول الفيلسوف القرني غويو Guyau ، في احد كتبه ، ان طفلاً كان بحضوره يصف القمر بقوله «ملعون» لانه لم يكن يود الظهور ؛ فهذا الطفل كان يعتبر القمر كائناتاً حياً ، والانسان البدائي يحني ، على غرار هذا الطفل ، الطبيعة بمجموعها . ان التفكير الاحيائي (١) هو المرحلة الاولى في تطور التفكير الديني ، والخطوة الاولى للعلم هي ابعاد التفسير الاحيائي لحوادث الطبيعة وفهمها كظواهر خاضعة لقوانين . فبينما يعتقد الطفل ان القمر لا يظهر لأنه «ملعون» ، يشرح لنا علم الفلك بمجمل الشروط الطبيعية التي تسمح لنا أو تمنعنا ، في وقت معين ، من رؤية كوكب أو آخر . والحال ، بينما كان تقدم العلم في ميدان تفسير الطبيعة سريعاً نسبياً ، فان

١ - التفكير الاحيائي : animisme : تفكير يقوم على بث الروح والحياة في

الاشياء الجامدة .

علم المجتمع الانساني وتاريخه لم يتقدم الا ببطء شديد . فقد كان التفسير الاحيائي للحوادث التاريخية مقبولاً في عهد اصبح فيها التفسير الاحيائي لظواهر الطبيعة موضع سخريّة .

وكان من المباح تماماً في مجتمعات راقية جداً تفسير الحركة التاريخية على أنها تجل لارادة إله أو عدة آلهة . ان هذا التفسير للتاريخ جعل الاله هو ما نسميه المفهوم اللاهوتي لتاريخ .

ولايضاح هذا المفهوم ، سأحدد هنا معالم الفلسفة التاريخية لدى رجلين شهيرين : القديس اوغسطين أسقف هيون ، ووسويه أسقف مو .

ينظر القديس اوغسطين (١) الى الحوادث التاريخية على انها تخضع للعناية الالهية ، وأكثر من ذلك ، فهو مقتنع بأنه لا يمكن النظر اليها على نحو آخر .

يقول أوغسطين : « انظروا الى هذا الاله الحقيقي الجبار ، الواحد القهار ، مبدع جميع الارواح والاجساد . وبارئها . الذي جعل الانسان حيواناً عاقلاً مركباً من جسد وروح ، هذا الاله الذي هو مبدأ كل قاعدة وكل جمال وكل نظام ، والذي يهب كل شيء العدد والوزن والقياس ، والذي يشتق منه كل انتاج طبيعي ، مما كان نوعه وثمنه ، اني اسألكم : هل يقل ان هذا الاله قد تحمل أن تبقى امبراطوريات الارض وسيطرتها وعبوديتها غريبة عن شرائع عنايته (مدينة الله) .

١ - القديس أوغسطين : St . Augustin (٣٥٤ - ٤٣٠ م) هو أسقف هيون (في افريقيا الشمالية) ، هو من اشهر آباء الكنيسة ، عرض افكاره في كتابه « مدينة الله » .

والقديس اوغسطين لا يترك وجهة النظر العامة هذه في اي من شروحه
التاريخية . فاذا اراد تفسير عظمة الرومان ، يروي لنا بكثير من التفاصيل انها
كانت تدخل في نظرات الاله :

« بعد ان تألفت ممالك الشرق على الارض خلال سلسلة
طويلة من السنين اراد الله ان تصبح الامبراطورية الغربية ، التي
كانت آخر الامبراطوريات في الترتيب الزمني ، اولها من
حيث العظمة والاتساع ، ولما كانت ينبغي استخدام هذه
الامبراطورية لانزال العقاب بعدد كبير من الائم ، فقد سلبها
لرجال شغوفين بالاطراء والتمجيد ، لرجال كانوا يرون مجدهم
في مجد اوطن وكانوا مستعدين دائماً للتضحية بأنفسهم في سبيل
انتقاده ، متغلبين بذلك على جهنم للمال وعلى سائر الرذائل الاخرى
بهذه الرذيلة الوحيدة الا وهي حب المجد . اذ ان حب المجد -
علينا ان لا ننحني ذلك - هو رذيلة الخ ... » .

واذا كانت القضية تفسير عظمة (قسطنطين) اول امبراطور
مسيحي ، فالارادة الالهية كافية بازالة كل صعوبة . وان الله ،
اذا اراد منع عباده من الاقتناع باستحالة الحصول على ممالك
الارض واجمادها بدون مساعدة الشياطين فقد اراد ان يسبح
نعمته على الامبراطور قسطنطين ، - الذي لم يلجأ الى الالهة
الكاذبة ، ولم يعبد سوى الاله الحقيقي - وان يشره بخيرات
تفوق ما كان يجزو اي امبراطور آخر على تمنيا . » .

وأخيراً ، اذا كانت القضية معرفة سبب نوام حرب اكثر من حرب

أجبري ، فأوغسطين يقول لنا ان تلك هي مشيئة الله :

« وكما انه يتوقف على الله ان ينزل بالبشر العذاب أو يكشف عنهم الضر ، وفقاً لاحكام عدالته ورحمته ، كذلك فهو الذي يضبط مواقيت الحروب والتي يختصرها او يمددها حسب مشيئته » .

هكذا ترون ان اوغسطين يبقى على اللوام اميناً لمبدئه الاساسي ولكن بمننا يؤسف له انه لا يكفي للمرء ان يبقى اميناً لمبدأ معين لكي يجد التفسير الصحيح للظواهر . اذ ينبغي على فيلسوف التاريخ ، قبل كل شيء ، ان يدرس بعناية سائر الوقائع التي سبقت ورافقت الظاهرة التي يسمي لتفسيرها . فالبداً الاساسي لا يمكنه ولا يجوز له ان يكون الا انخبط الموجه في تحليل الواقع التاريخي . والحال ان نظرية اوغسطين لا تكفي ، من كلتا الناحيتين المذكورتين : فمن حيث كونها طريقة لتحليل الواقع التاريخي ، هي عديمة الجدوى . واما من جهة مبدئها الاساسي ، فارجوكم ان تلاحظوا الامر التالي : يتحدث اوغسطين عما يسميه شرائع العناية الالهية بقناعة واسهاب مجلانا نقساءل ، لدى قراءته ، عما اذا استودعه ربه اسراره ، ويقول لنا المؤلف نفسه في الكتاب نفسه وبالامانة نفسها لمبدئه الاساسي ان صلب الله لا يمكن سبر غورها ، ولكن اذا كانت الامور على هذا الشكل فلم التعرض لهذه المهمة التي هي لا مجاله عقيمة ومجدبة ؟ ولم اعتماد تلك السبل التي لا يمكن سبر غورها لتفسير حوادث الحياة الانسانية ؟ ان التناقض ملموس ولذلك فتحن مرغمون ، مما كان ايماننا راسخاً لا يتزعزع ، على التخلي عن التعليل اللاهوتي للتاريخ ، اذا كنا نتمسك ولو قليلاً بالمنطق ، واذا لم

لشأ الاعاء بان ما لا يمكن سبر غوره ، اي ما هو عصي التفسير يفسر ويوضح
جميع الاشياء .

لنتقل الى بوسويه (1) . ان بوسويه مثل اوغسطين ، يؤيد في مفهومه للتاريخ
وجهة النظر اللاهوتية . فهو مقتنع بان مصائر الشعوب في التاريخ ، او حسب
تعبيره ، انقلابات الامبراطوريات ، إنما تنظمها العناية الالهية ، ويقول في « خطابته
عن التاريخ العالمي » :

« ان لهذه الامبراطوريات ارتباطا ضروريا بتاريخ شعبنا
الله . فقد استخدم الله الآشوريين والبابليين لمعاينة هذا الشعب ،
واستخدم الاسكندر وخلفاءه الاولين لحمايته ؛ وانطيوخوس
الشهير وخلفاءه لامتحانهم ؛ والرومان لدعم حريته ضد ملوك
سوريا الذين لم يكونوا يفكرون الا بتدميره . وبقى اليهود حتى
عهد المسيح تحت سيطرة الرومان انفسهم . ولما انكروه وصلبوه ،
قدم اولئك الرومان ، بصرة لا شعورية ، سواعدهم لتكون
أداة الانتقام الالهي ، فأبادوا هذا الشعب العاق » .

وبكلمة مقتضبة ، ان جميع الامم وسائر الامبراطوريات الكبرى التي ظهرت
على مسرح التاريخ الواحدة تلو الاخرى ، قد اسهمت بوسائل مختلفة في تحقيق
الهدف ذاته ، وهو خير الدين المسيحي ومجد الله . ويكشف بوسويه لتلميذه
احكام الله السرية عن الامبراطورية الرومانية وعن روما نفسها ، معتمداً في ذلك
على ما أوحى به الروح القدس الي يوحنا اللاهوتي فشرحه هذا الاخير في كتابه

١ - بوسويه : Bossuet (١٦٢٧ - ١٧٠٤) : اسقف فرنسي شهير ، عين
مرياً لولي العهد ، فالف له كتابه « خطاب عن التاريخ العالمي » .

« الرؤيا » : انه يتحدث هو ايضاً ، كما لو كفت سبل الله عن كونها عصية الدراسة . وبما بلغت الانتباه ان مشهد الحركة التاريخية لا يوحى لبوسويه الا الشعور بظلال الامور البشرية . فهو يقول :

« عندما ترى (لا أقول الملوك والأباطرة بل) تلك الامبراطوريات الكبرى التي هزت الكون ، عندما تراها تمر أمام عينيك كما لو كان ذلك في لحظة قصيرة ؛ عندما ترى الآشوريين القدماء والجدد ، والميديين ، والفرس ، والاعريق ، والرومان ، يثقلون امامك على التوالي ، ويسقطون ، ان صح القول ، بعضهم فوق البعض الآخر ، فان هذا الصدام المروع ، يجعلك تشعر بأن ليس شيء راسخ بين الناس ، وان القلب والاضطراب هما النضيب الخالص بالامور الانسانية .

ان هذا التشاؤم هو احدي السمات الأكثر بروزاً في فلسفة بوسويه التاريخية . واذنا معنا النظر في القضية ، توجب الاعتراف بأن هذه السمة تمكس بامانة طابع المسيحية الاساسي . فالمسيحية تعد المؤمنين بالجزاء ، بكثير من العزاء ، ولكن كيف تعزيهم ؟ تعزيهم بفصلهم عن امور الدنيا ، واقناعهم بأن كل شيء باطل على الأرض ، وان السعادة مستحيلة للبشر الا بعد الموت . وارجوكم ان تحفظوا هذه السمة في ذاكرتكم ؛ فهي سوف تعطينا حداً للمقارنة .

وان سمة ملحوظة اخرى لفلسفة بوسويه التاريخية هي انه ، بخلاف لاوغسطين ، لا يكتبني ، في تعليقه للجوادل التاريخية ، باللجوء الى ارادة الله ، بل يوجه انتباهه نحو ما يسميه الاسباب الخاصة لانقلابات الامبراطوريات .
يقول بوسويه :

« فهذا الاله ، الذي صنع تسلسل الكون ، هذا الاله القادر على كل شيء ، والذي اراد ، في سبيل اقامة النظام ، ان تكون اجزاء هذا الكل الشامل العظيم مترابطة فيما بينها ، هذا الاله ذاته قد اراد ان يكون أيضاً لسير الامور البشرية تسلسله ونسبه ، واقصد بذلك ان البشر والامم قد تحلوا بصفات مناسبة للربوبية التي قدرت لهم ؛ وانه ، باستثناء بعض الضربات الخارقة التي اراد الله ان تظهر فيها يده منفردة ، لم يحصل أي تبدل كبير الا وكانت له اسبابه في القرون السابقة . وبما ان لسائر الشؤون ما يهيئها وما يقرر المباشرة فيها ، وما يحقق نجاحها ، فلن علم التاريخ الحقيقي هو في ملاحظة هذه الاستعدادات الخفية التي هيأت التبدلات الكبرى والتخمينات الهامة التي اخرجتها الى حيز الوجود . »

هكذا ، حسب رأي بوسويه ، تحدث في التاريخ حوادث تظهر فيها يد الله منفردة ، أي بتعبير آخر حوادث يعمل فيها الله بصورة مباشرة . وتلك الحوادث هي ، اذا صح القول ، معجزات تاريخية ولكن ، في معظم الاحوال وفي سير الامور الاعتيادي ، للتبدلات التي تحصل في عهد معين اسبابها في العهود السابقة ، ومهمة العلم الحقيقي هي دراسة هذه الاسباب التي ليس فيها شيء خارق ، لانها لا تتعلق الا بطبيعة البشر والامم .

بوسويه يترك انفسه ، في مفهومه اللاهوتي للتاريخ ، مجالاً رحباً للتفسير الطبيعي للحوادث التاريخية . صحيح ان هذا التفسير الطبيعي يرتبط عنده ارتباطاً وثيقاً بالفكرة اللاهوتية ؛ فانه هو الذي يهب البشر والامم صفات تناسب

المرتبة التي قدرها لهم . ولكن قد تعطى هذه الصفات ، تحقق عملها لو حدها ،
وما دامت تحقق عملها ، فليس من حقنا فحسب ، بل من واجبنا ايضاً
- وبوسويه يؤكّد ذلك - ان تحوي التفسير الطبيعي التاريخ . وتمتاز فلسفة
بوسويه في التاريخ عن فلسفة اوغستين بميزة كبرى هي الملاحا على ضرورة
دراسة الاسباب الخاصة للحوادث .

ولكن هذه الميزة ليست في الاساس ، الا اعترافاً غير واعي وغير ارادي
دون شك ، بمجوز وعقم المفهوم اللاهوتي بالمعنى الاصلي ، اي المهج الذي يقوم
على تفسير الظواهر بفعل عامل او عدة عوامل خارقة .

وقد اتقن اعداء اللاهوت استغلال هذا الاعتراف في القرن التالي .
وان اذهب هؤلاء الاعداء ، فولتر الملعب ببطريك فوني ، يفتخر من قناه
اللاهوت في كتابه الشهير « مبحث في طبائع الامم » فيقول :

« لا شيء جدير بفضولنا مثل الطريقة التي اراد بها الله
تثبيت دعائم الكنيسة ، مستخدماً الاسباب الثانية لتحقيق احكامه
الازلية . فلنترك باحترام ما هو إلهي لمن هم مدته ، ولننصرف
الى ما هو تاريخي » .

المفهوم المتالي للتاريخ

هكذا وضع المفهوم اللاهوتي للتاريخ جانباً بكل اجترام. والصرف فولتير^(١) الى الشئ. التاريخي، ساعياً لتفسير الظواهر بأسبابها الثانية، أي الطبيعة. وهل العلم سوى التفسير الطبيعي للظواهر؟
ان فلسفة فولتير التاريخية هي محاولة لتعليل علمي لتاريخ. فللتنظر الى هذه المحاولة عن كسب. ولنر مثلاً ما هي، حسب رأي فولتير، اسباب سقوط الامبراطورية الرومانية.

كان الانحطاط الروماني طويلاً وبطيئاً، ولكن فولتير يبرز، من بين الكوارث التي سببت سقوط الامبراطورية الجبارة، سببين رئيسيين: البرابرة والمجاذلات الدينية.

لقد دمر البرابرة^(٢) الامبراطورية الرومانية. ولكن فولتير يسأل

١ - فولتير: Voltaire (١٦٩٤ - ١٧٧٨) كاتب وفيلسوف. غير مثل لروح القرن الثامن عشر: الايمان بالعقل ويتقدم الانسان.
٢ - البرابرة: كان الرومان يطلقون هذا التعبير على جميع الشعوب التي بقيت خارج نطاق حضارتهم. ويقصد به عادة القبائل المسلحة التي اغتلبت تهاجم الامبراطورية الرومانية وتفزوها من الشمال بين القرنين الثالث والسادس، ومعظم هذه القبائل من الجرمان

لماذا لم يبدم الرومان ، كما اباد ماريوس قبائل السمر (١) ؟ - لأنه لم يبق هناك
مثيل لماريوس ولماذا لم يبق هناك مثيل لماريوس ؟ - لأن طبائع الرومان كانت قد
تبدلت . وكانت ابرز علامة لهذا التبدل في الطبائع هي ان الامبراطورية اصبحت
لديها من الرهبان أكثر مما لديها من الجنود ، وكان هؤلاء الرهبان يركضون
زواجات من مدينة الى اخرى لدعم او هدم مبدأ وحدة جوهر الكلمة ، :

« بما ان احفاد سيبون أصبحوا مجادلين ، وبما ان الاعتبار
الشخصي انتقل من امثال هورتسيوس وشيشرون الى
امثال سيريل وغريغوار وامبرواز فقد ضاع كل شيء ؛ واذا
كانت امة امر يبعث الى الدهشة فهو ان الامبراطورية الرومانية
قد استمرت مع ذلك قليلاً من الوقت . »

انكم ترون من هنا ما هو في نظر فولتير ، السبب الرئيسي لسقوط روما .
هذا السبب هو ظفر المسيحية . وعلى كل حال ، فالت فولتير يؤكد ذلك
بسخريته اللاذعة :

« لقد فتحت المسيحية أبواب السماء ، ولكنها أودت
بالامبراطورية ، »

فهل كان فولتير على صواب ام كان على خطأ ؟ هذا الامر لا يعنيننا
الآن . وما يهمنا هو ان نتفهم بالضبط افكار فولتير التاريخية . اما الفحص
الانتقادي فسيأتي فيما بعد .

١ - السمر : Cimires . : قبائل بربرية اجتاحت بلاد الغال (فرنسا) في القرن الثاني

ق . م . فابدا ماريوس في مقاطعة بيمون (شمال غربي ايطاليا) . (المترجم)

من هنا يتبين لنا ان المسيحية، حسب رأي فولتير، قد أودت بالامبراطورية
ولكنه يحق للانسان دون ريب ان يسأل عن سبب ظفر المسيحية
في روما .

حسب رأي فولتير كانت الاداة الرئيسية لانتصار المسيحيين . الامبراطور
قسطنطين الذي يعطي عنه فولتير صورة مطابقة للحقيقة التاريخية . ولكن
هل بمقدور رجل ، حتى لو كان امبراطوراً و كان على قسط كبير من السور-
والنظير ان يحقق ظفر دين ما ؟

لقد كان فولتير يعتقد ذلك ممكناً . ولم يكن وحده في عصره على هذا
الاعتقاد ، بل كان سائر الفلاسفة يشاركونه فيه . وعلى سبيل المثال
سوف اذكر لكم ملاحظات كاتب آخر حول اصل الشعب اليهودي وحول
المسيحية .

واذا كان المفهوم اللاهوتي للتاريخ يقوم على تفسير التطور التاريخي
بارادة عامل او عدة عوامل خارقة وتأثيرها المباشر او غير المباشر ، فالمفهوم
المتالي - الذي ايدته فولتير واصدقاؤه بقناعة تامة - يقوم على تفسير هذا
التطور نفسه بتطور الطبائع^(١) والافكار ، او الراي^(٢) ، حسب تعبير القرن
الثامن عشر .

يقول سوار Suard .

واقصد بالرأي حصيلة مجموع الحقائق والاختفاء المنتشرة في أمة

١٠ . الطبائع : les mœurs

٢٠ . الرأي : l'opinion

ما هي حصيلة تحديد احكام الاحترام والاحتقار ، والحب والبغض
لدى هذه الامة ، وتكون ميولها وعاداتها ، وافكارها وفضائلها
وبكلمة واحدة طبائعا .

وما دام الرأي العام هو الذي يحكم العالم ، فبديهى انه يشكل السبب الاساسي ،
السبب الاعمق للحركة التاريخية ، ولا مجال للفرابة اذا استنجد المؤرخ بالرأي
كقوة فتج ، في آخر تحليل حوادث هذا العهد او ذلك .

واذا كان الرأي بشكل عام يعكس الحوادث التاريخية ، فمن الطبيعي
تماماً ان نبحث في الرأي الديني (في المسيحية مثلاً عن السبب الاعمق لازدهار
او انحطاط امبراطورية ما (الامبراطورية الرومانية مثلاً) فقد كان فولتير
اميناً لفلسفة عصره في قوله ان المسيحية سبب خراب الامبراطورية الرومانية .
غير ان العديد من فلاسفة القرن الثامن عشر قد اشتهروا بكونهم ماديين .
هكذا كان هولباخ (١) مؤلف الكتاب الشهير « نظام الطبيعة » ،
وهلغيسيوس (٢) ، مؤلف كتاب « الفكر » ، الذي لم يكن اقل شهرة من
الاول ، وطبيعي جداً ان تفترض ان اولئك الفلاسفة على الاقل لم يؤيدوا المفهوم
للتالي تاريخ .

ولكن مما بدا هذا الافتراض طبيعياً ، فهو خاطئ . : هولباخ وهلغيسيوس ،

١ - هولباخ : Holbach • ١٧٢٢ - ١٧٨٩ ، فيلسوف فرنسي مادي ،

من اصل بيري . • المترجم •

٢ - هلغيسيوس : Helvétius • ١٧١٥ - ١٧٧١ ، فيلسوف فرنسي

مادي ، كان يرى ان الفكر بكامله يشتق من الاحساسات . • المترجم •

الماديان في مفهومها للطبيعة ، كآنا مثاليين فيما يتعلق بالتاريخ . لقد كان ماديو ذلك العهد أسوة بسائر فلاسفة القرن الثامن عشر ، أسوة بجماعة رجال الموسوعة ، يستقدون ان الوأي يحكم العالم وان تطور الرأى يفسر في آخر تحليل التطور التاريخي بمجموعه . يقول هولباخ :

« إن الجهل والخطأ والحكم المسبق والنقص في الخبرة والتفكير والتبصر ، تلك هي المنابع الحقيقية للشر الاخلاقي . فان الناس لا يسيء بعضهم الى البعض الآخر ولا يجرحون شركاهم الا لآتهم لا يعرفون مصالحهم الحقيقية ، . (النظام الاجتماعي او المبادئ الطبيعية للاخلاق والسياسة) .

ونقرأ في مكان آخر من الكتاب ذاته :

« برهن لنا التاريخ سبخ ان الأمم كانت ، في مجال الحكم ، العوية جهلها وتغافلها وسرعة تصديقها وموجات الرعب الشديد التي كانت تجتاحها ، وخاصة العوية اهواء الذين استطاعوا ان يهيمنوا على جمهور الموام . وكثيراً ما بدلت الشعوب شكل حكوماتها ، على ضرار المرضى الذين يتقلبون في فراشهم باستمرار ، دون ان يجدوا فيه الوضع المناسب ، ولكنها لم تملك في يوم من الأيام السلطة او القدرة التي تمكنها من اصلاح الاساس ، من الرجوع الى منبع أدوائها الحقيقي ؛ بل تقاذفتها على الدوام اهواء عمياء . »

وتبين لكم هذه الاستشهادات ان الجهل قد كان في نظر المادي هو لبساح ،
سبب الشر الاخلاقي والسياسي . فاذا كانت الشعوب شريرة ، فمرد ذلك الى
جهلها ؛ واذا كانت حكوماتها حمقاء ، فذلك لانها لم تتمكن من اكتشاف
المبادئ الصحيحة للتنظيم الاجتماعي والسياسي ؛ واذا لم تقتلع ثورات الشعوب
جذور الشر الاخلاقي والاجتماعي ، فذلك لانها لم يكن لديها ما يكفي من
الانوار . ولكن ما هو الجهل ؟ ما هو الخطأ ؟ وما هو الحكم المسبق ؟ إن
الجهل والخطأ والحكم المسبق ليست كلها سوى وأي خاطيء ، واذا حال الجهل
والخطأ والحكم المسبق دون اكتشاف الأسس الصحيحة للتنظيم السياسي
والاجتماعي ، فمن الواضح ان الواي اثطاطي هو الذي حكم العالم . وهو لبساح
اذن هو ، في هذا المضمار ، على رأي واحد مع معظم فلاسفة القرن الثامن عشر .

أما بصدد هلفيسوس ، فلن اذكر سوى رأيه في النظام الاقطاعي حيث
يقول في رسالته الى سورين عن « روح الشرائع » لونتيسكيو :

« يا للخرابة ! ما يريدنا لونتيسكيو ان نتعلم من بحثه عن
الاقطاعات ، ؟ وهل مجرد هذا الموضوع بأن يسمى
لايضاحه مفكر حكيم وعاقل ؟ وأي تشريع يمكن ان ينتج
عن هذه الفوضى البربرية ، فوضى الشرائع التي اقامتها القوة ،
فاحترمها الجهل ، والتي سبتمارض دائماً مع نظام حسن
للأشياء . »

ويقول في مكان آخر :

« مونتسكيو مفرد في نزعه الاقطاعية ، ونظام الحكم
الاقطاعي هو منتهى الخماقة » .

هكذا ، يجد هلفيسوس ان الاقطاعية ، وهي نظام كامل من المؤسسات
الاجتماعية والسياسية ، كانت منتهى الخماقة ، وانها بالتالي وليدة الجهل او بتعبير
آخر وليدة وأي خاطئ . وهكذا فالرأي قد حكم العالم دافعاً ، في
الخير او الشر .

قلت سابقاً ان ما يهمننا ليس تعد هذه النظرية بل ادراكها بشكل جيد
وتفهم طبيعتها . والآن بعد ان عرفناها ، لم يعد تحليلها جازاً فقط ، بل هو ضروري
أيضاً .

فهل هذه النظرية صحيحة ام خاطئة ؟

هل صحيح ام لا ان اناساً لا يفهمون مصالحهم ليس بإمكانهم ان يخدموها
بشكل مقبول ؟ هذا صحيح بلا جدال .

هل صحيح ام لا ان الجهل سبب للانسانية كثيراً من الأضرار وان نظاماً
اجتماعياً وسياسياً يرتكز على خضوع واستئثار الانسان للانسان ، كما كانت
الاقطاعية ، ليس ممكناً إلا في عهد يسوده الجهل والباطل الراسخة
رسوخاً عميقاً ؟

هذا صحيح تماماً ، ولا أرى كيف يمكن الجدال في حقيقة لا تقبل الشك
ك هذه الحقيقة .

وبكلمة مقتضبة ، هل صحيح ام خطأ ، ان للرأي ، بالمعنى الذي حددته

سوار ، تأثيراً كبيراً على سلوك البشر ؟ كل من يعرف البشر سيقول ان هذا
ايضاً امر لا يقبل الشك او الجدل .

فهل يرتكز اذن المفهوم المثالي للتاريخ على الحقيقة ؟ اني اجيب نعم ولا .
واليكم ماذا اعني بذلك :

إن المفهوم المثالي للتاريخ صحيح ، بمعنى انه يتضمن بعض الحقيقة . نعم فيه
بعض الحقيقة : إن للرأي تأثيراً بالغاً على البشر . ويمحق اذن لنا القول بأنه يحكم
العالم ولكنه يمحق لنا تماماً ان نقاسم عما إذا كان هذا الرأي الذي يحكم العالم
لا يحكمه اي شيء آخر ؟ وبعبارة أخرى ، يمكننا ويجب علينا ان نقاسم عما إذا
كانت آراء البشر وعواطفهم أمراً خاضعاً للمصادفة . إن مجرد طرح هذه المسألة
ينبغي حلها فوراً بالاتجاه السلي . كلا ، ليست آراء البشر وعواطفهم خاضعة للمصادفة ،
وانما تخضع في نشوئها وتطورها لقوانين يجب ان تدرسها . ومتى قبلتم بهذا -
وهل يمكن عدم قبوله ؟ - فأنتم ملزمون بالاعتراف بأنه إذا كان الرأي يحكم العالم ،
فهو لا يحكمه كحاكم مطلق ، بل هو محكوم بدوره ، وبالتالي ، فمن يستجسد
بالرأي هو بعيد عن تعيين السبب الأساسي ، السبب الأعمق للحركة التاريخية .

لذلك فالمفهوم المثالي للتاريخ يتضمن بعض الحقيقة ؛ ولكنه لا يتضمن كل
الحقيقة .

ولمعرفة كل الحقيقة ، ينبغي لنا ان نعود الى البحث وان نستأنفـه بالضبط
حيث تركه المفهوم المثالي للتاريخ . ينبغي لنا ان نسعى لتبيين بصورة صحيحة
اسباب نشوء وتطور وأي الناس الذين يعيشون حياة اجتماعية .

ولتسهيل مهمتنا سنسلك طريقاً منهجياً . وقبل كل شيء سنرى ما إذا كان

الرأي ، اي وفقاً للتعريف الذي أعطاه سوار جملة الحقائق والخطأ المنتشرة بين الناس ، فطورياً بالنسبة لهم . اي اذا كان الرأي يولد معهم ليزول بزوالهم . هذا يرجع الى التساؤل عما اذا كانت ثمة افكار فطورية . لقد مر زمن كانت الناس مقتنين اقتناعاً واسعاً ، بان الافكار فطورية ، جزئياً على الأقل . ولما كان الناس يقبلون بوجود الافكار الفطورية هذه ، كانوا يرون في الوقت ذاته ان تلك الافكار تشكل اساساً مشتركاً للإنسانية قاطبة ، اساساً يبق على اللوام واحداً في كافة الازمنة ومئات الأقاليم .

واقدم كان هذا الرأي واسع الانتشار الى ان كفضحه وهزمه جون لوك (١) ، وهو فيلسوف انكليزي ذو فضل كبير . وقد برهن لوك في كتابه الشهير « مبحث في الفهم الانساني » على انه لا توجد افكار او مبادئ او مفاهيم فطورية في عقل الانسان .

ان الناس يستمدون افكارهم ومبادئهم من التجربة ، وهذا صحيح بصدده المبادئ التأملية والمبادئ العملية او مبادئ الاخلاق سواء بسواء . فمبادئ الاخلاق تتبدل تبعاً للزمان والمكان : عندما يشجب الناس عملاً ما ، فذلك لانه مضر لهم . وعندما يتمدحوه فذلك لانه مفيد لهم . فالمصلحة اذن (المصلحة الاجتماعية لا المصلحة الخاصة الفردية) تحدد احكام الناس في ميدان

١ - لوك : Locke ، ١٦٣٢ - فيلسوف انكليزي كبير ، مؤسس التيار التجريبي ، empirisme . كان يرى ان الانسان يستمد مبادئ افكاره من التجربة عن طريق الحواس . وقد اثرت آراؤه تأثيراً كبيراً على الفلسفة المادية في القرن الثامن عشر . المترجم .

الحياة الاجتماعية . ذلك كان مذهب لوك الذي بنى سائر الفلاسفة الفرنسيين في القرن الثامن عشر . ويحق لنا إذن ان نتخذ هذا المذهب كنقطة ابتداء في تقدمنا لمفهومهم عن التاريخ .

لا توجد افكار فطرية في العقل البشري ، والتجربة هي التي تحدد الافكار التأمليه ، والمصلحة الاجتماعية هي التي تحدد الافكار « العملية » . لتقبل بهذا المبدأ وانر ماهي النتائج التي تنجم عنه .

رد الفعل بعد الثورة الفرنسية

ثمة حدث تاريخي عظيم يفصل القرن الثامن عشر عن القرن التاسع عشر ، هو الثورة الفرنسية التي مرت على فرنسا ، كالأعصار ، فدمرت النظام القديم وكنست بقاياه . وأثرت تأثيراً عميقاً في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية ليس في فرنسا وحدها بل في أوربا قاطبة ، وكان لا بد لها من التأثير على فلسفة التاريخ .

فما هو هذا التأثير ؟

لقد كانت تبيجتها المباشرة الشعور بأعياء هائل . وولد الجهد الكبير الذي بذله رجال ذلك العصر حاجة ملحة للراحة .

وبجانب هذا الشعور بالأعياء ، الذي لا بد من حدوثه بعد كل بذل كبير للقوة ، ظهرت أيضاً بعض الريبة (١) . فقد كان القرن الثامن عشر يؤمن إيماناً راسخاً بانتصار العقل ، ويقول مع فولتير : « إن العقل ينتصر دائماً في النهاية (٢) » . فجاءت أحداث الثورة لتحطم هذا الإيمان ، إذ

١ - الريبة : scepticism : فلسفة الشك .

٢ - La raison finit toujours par avoir raison .

رأى الناس كثيراً من الحوادث غير المتظرة ، وانتصار كثير من الاشياء التي كانت تبدو مستحيلة ومخالفة للعقل ، وانهار كثير من الحسابات الحكيمة تحت منطق الوقائع الفاشم . فآخذوا يقولون أن للعقل لن ينتصر أبداً ، على الأرجح . ولدينا على ذلك شهادة ثمينة ، هي شهادة مدام دوستان (١) ، المرأة الفطنة التي كانت تلاحظ بشكل جيد ما كان يدور حولها :

« لقد أرعبت الثقلبات المروعة التي أسفرت عنها الاحداث السياسة معظم الناس ، فققدوا كل اهتمام بتحسين أنفسهم وآمنوا بقوة المصادفة ولم يعودوا يؤمنون بنفوذ الملكات العقلية . »

هكذا ، فان قوة المصادفة قد روعت الناس . ولكن ما هي المصادفة ؟ وما هي المصادفة في حياة المجتمعات ؟ إن في ذلك مادة للنقاش الفلسفي ، ولكن يمكننا القول ، دون الدخول في هذا النقاش ، إن الناس ، في أحيان كثيرة ينسبون للمصادفة ما يبقى مجهول الأسباب بالنسبة لهم ، لذلك ، فمتدا يشعرون بقوة المصادفة ، بصورة مفرطة أو لمدة طويلة ، ينتهون إلى محاولة تفسير واكتشاف أسباب الظواهر التي كانوا يعتبرونها في السابق عرضية . هذا بالضبط ما نراه في ميدان العلم التاريخي في بداية القرن التاسع عشر .

فلسفة التاريخ عند سان سيمون

يسمى سان سيمون^(١) ، وهو واحد من أوسع المفكرين اطلاعاً ومن أقدم تركيزاً في النصف الأول من هذا القرن ، لوضع أسس علم اجتماعي . وهو يرى أن العلم الاجتماعي ، علم المجتمع الانساني (أو الفيزياء الاجتماعية كما يسميها أحياناً) ، يمكن ويجب ، أن يصبح علماً يقينياً بقدر العلوم الطبيعية . وعلينا أن ندرس الحوادث المتعلقة بحياة الانسان الماضية لاكتشاف قوانين تقدمها . ولن يسعنا التنبؤ بالمستقبل ، الا بعد ان نفهم الماضي . وافهم الماضي أي لتفسيره يدرس سان سيمون بوجه خاص تاريخ أوروبا الغربية منذ سقوط الامبراطورية الرومانية .

ويرى في هذا التاريخ نضال الصناعاتيين (او الطبقة الثالثة^(٢)) كما كان

١ - سان سيمون : Saint Simen : - ١٧٦٠ - ١٨٢٥ - واحد من أئمة

اشتراكية ما قبل ماركس . * المترجم *

٢ - الطبقة الثالثة : او الهيئة الثالثة : Tiers état : تعبير كان يطلق ، قبل الثورة

الفرنسية ، على الشعب (أي البرجوازيون والفلاحون والعمال) ، بينما كان الاكابر وس والنبلاء

يشكلون الطبقتين الاولى والثانية . * المترجم *

يقال في القرن السابق) ضد الارستقراطية . فقد تحالف الصناعيون مع الملكية ، ودعموا الملوك ، وقدموا لهم وسائل الاستيلاء على السلطة السياسية التي كانت سابقاً بأيدي الامياد الاقطاعيين ومقابل هذه الخدمات ، منحهم الملكية حمايتها ، فاستطاعوا بواسطة هذه الحماية احراز انتصارات هامة عديدة على اعدائهم . وتوصل الصناعيون شيئاً فشيئاً ، بفضل العمل والتنظيم ، الى امتلاك قوة اجتماعية جبارة ، تفوق قوة الارستقراطية بكثير .

ولم ير سان سيمون في الثورة الفرنسية الا صفحة من الصراع العظيم الذي دام قرونًا عديدة بين الصناعيين والتبلاء . وكانت سائر مقترحاته العملية تعود الى مشاريع تدابير يفتني ، حسب رأيه ، اتخاذها لانعام وتوطيد انتصار الصناعيين وانهزام التبلاء . والحال أن نضال الصناعيين ضد طبقة التبلاء كان صراع مصالحتين متعارضتين . وما دام هذا النضال ، كما يقول سان سيمون ، قد ملأ تاريخ أوروبا الغربية بكامله منذ القرن الخامس عشر ، يمكننا القول ان صراع المصالح الاجتماعية الكبرى هو الذي كان سبب الحركة التاريخية في الفترة المذكورة . وها نحن إذن بعيدون عن المفهوم التاريخي للقرن الثامن عشر : ليس الرأي هو الذي يحكم العالم ويحدد سير التاريخ ، وإنما المصلحة الاجتماعية ، أو بتعبير أفضل من ذلك مصلحة العناصر الكبرى البانية للمجتمع ، مصلحة الطبقات ، والصراع الاجتماعي الناجم عن تعارض هذه المصالح .

وقد آثر سان سيمون بأفكاره التاريخية تأثيراً طامحاً على واحد من اكبر المؤرخين الفرنسيين : أوغستين تيري . وبما ان أوغستين تيري قد احدث ثورة حقيقية في العلم التاريخي في بلاده ، فمن المجدي ان نحلل أفكاره .

أوغستين تيري وصيفيه

انكم تتذكرون ، على ما أعتقد ، ما قلته عن هولباخ . ان تاريخ الشعب اليهودي مثلاً كان في نظر هولباخ ، من صنع رجل واحد هو موسى ، الذي صاغ طابع اليهود واعطاهم تكوينهم الاجتماعي والسياسي ، كما اعطاهم دينهم وكان هولباخ يضيف ان كل شعب له موساه . فلم تكن فلسفة التاريخ في القرن الثامن عشر تعرف سوى الفرد ، سوى الرجال العظام أما الجماهير ، اي الشعب بوصفه كياناً قائماً بذاته ، فلم يكن له اي وجود تقريباً . وفلسفة أوغستين تيري (١) التاريخية هي في هذا المضمار عكس فلسفه القرن الثامن عشر . يقول تيري في « وسائله عن تاريخ فرنسا » :

« ان تعنت المؤرخين في حرمان الجماهير البشرية من كل عفوية أو بصيرة طموح أمر يسير تماماً . فاذا هاجر شعب بأسره واقام موطناً جديداً ، فرد ذلك ، حسب قول المؤرخين والشعراء ، الى ان احد الابطال قد اعتزم تأسيس امبراطورية

« ١ » أوغستين تيري : Augustin Thierry « ١٧٩٥ - ١٨٥٦ »

لاشهار اسمه ؛ واذا قامت عادات جديدة ، فرد ذلك إلى ان احد
المشرعين قد تخيلها وفرضها ، وإذا تأسست مدينة ، فلأن احد
الامراء قد اوجدها : اما الشعب والمواطنون فهم دائماً كقطعة
من القماش يفصلها تفكير الرجل الفرد .

لقد كانت الثورة من صنع الجماهير الشعبية ، وهذه الثورة ، التي ما زالت
ذكرها حية في زمن «عودة الملكية»^(١) لم تعد تسمح بالنظر إلى الحركة التاريخية
على انها من صنع افراد يمتازون بقسط كبير او صغير من الحكمة والفضيلة .
وبدلاً من الاهتمام بوقائع الرجال العظام وماثرهم ، اصبح المؤرخين عازمين الآن
على الاهتمام بتاريخ الشعوب . هذا امر في غاية الاهمية ، ويجدر بنا أن نحفظه في
ذاكرتنا .

ولنمض في طريقنا إلى ابعد من ذلك ان الجماهير الكبيرة هي التي تصنع
التاريخ ، هذا صحيح . ولكن لماذا تصنعه ؟ وبعبارة آخر ، عندما تعمل الجماهير
فلاي هدف تعمل ؟ لهدف تأمين مصالحها ، هكذا يجب أوغستين
تيري .

« تريدون ان تعلموا . بالضبط ، من الذي انشأ مؤسسة ما ،
من الذي صمم مشروعاً من المشاريع الاجتماعية ؟ ابحثوا عن
الذين يحتاجون حقاً إليه ؛ اولئك هم اصحاب فكرته الاولى
وارادة العمل ، وعلى أقل تعديل ، القسط الاكبر

١ - عودة الملكية : Restoration ١٨١٥ - ١٨٣٠ . الفترة التي عاينها آل
بوربون إلى الحكم ، وتمتد من سقوط نابليون إلى ثورة ١٨٣٠ . ويعبر مؤرخو هذا العهد عن
مصالح الطبقة الوسطى « البرجوازية » .
« المترجم »

في التنفيذ ؛ الفاعل هو من يفيد الفعل (١) : هذه البديهة
تصحح في التاريخ كما في الحقوق .

فالجمهير تعمل إذن لمصلحتها ؛ والمصلحة هي مصدر ومبعث كل إبداع
اجتماعي . وهكذا تفهم بسهولة انه ، عندما تصبح مؤسسة ما متعارضة مع مصلحة
الجمهير : تبدأ الجمهير النضال ضدها . وبما أن المؤسسة المضرة بجمهور
الشعب هي في كثير من الأحيان مفيدة للطبقة صاحبة الامتياز . ويلعب
نضال طبقات البشر والمصالح المتعارضة دوراً كبيراً في فلسفة اوغستين تيري
التاريخية . فهذا النضال مثلاً قد ملأ تاريخ انكلترا منذ الفتح النورماندي حتى
الثورة التي اطاحت بأسره ستوارت . وفي الثورة الانكليزية التي حصلت في
القرن السابع عشر ، كانت تصارع طبقتان : الثالوثون (طبقة النبلاء) ، والمتلوبون
(جمهور الشعب بما فيه البرجوازية) .
يقول مؤرخنا :

« كل شخص وجد اجداده في عداد جيش الغزو الكبير
كان يغادر قصره للذهاب الى المعسكر الملكي لتسلم القيادة التي
كان يؤمله لها قلبه . أما سكان المدن والمواشي فكانوا يعضون
زرافات الى المعسكر المادي . ويمكن القول ان نداء الاستنفار
لدى الجيشين كان في الجهة الاولى : الفراغ والسلطة ، وفي الجهة
الاخري : العمل والحرية ، فالتعطلون في كل ملة ، وقصار اعم في استماع بلا

١ — قاعة معروفة في الحقوق ارمانية . وردت في الاصل باللغة اللاتينية . « المترجم »

عناء ، كانوا ينخرطون في الجيوش الملكية للدفاع عن مصالح
تتفق ومصالحهم ؛ بينما كانت تاملات فئة الغالبين القديماء الذين
ادركتهم الصناعة ينضمون الى حزب الكومونات ،
ولم يكن هذا التفاعل بين الطبقتين يحدد الحركة في الميدان الاجتماعي
والسياسي وحده ، بل ترى اثره في حقل الافكار ايضاً . فالآراء الدينية لدى
انكليز القرن السابع عشر كانت ، بنظر تيري ، تتلبس شكل أوضاعهم
الاجتماعية .

« لقد كان الفريقان يتابعان الحرب في سبيل مصالح وضعية
وما تبقى لم يكن الا تظاهراً او ذريعة . فمن كانوا ينضمون الى
صف الرعايا كانوا بغالبيتهم قسيسين (١) أي أنهم لم يكونوا يريدون
اي نير حتى في مجال الدين . ومن كانوا يدعمون القضية المضادة
كانوا اسقفيين او باپويين (٢) ؛ ذلك لأنهم كانوا يحبون ان يجدوا
حتى في اشكال العبادة ، سلطة يمارسونها وخرائب يجيئونها من
الناس . »

ها نحن نبتعد أكثر عن ظلمة القرن الثامن عشر . ففي ذلك القرن ، الرأي
بحكم المالم . أما الآن ، فالرأي في مجال الدين يحدد ، بحكمة فضال
الطبقات .

وتجدر الإشارة إلى ان المؤرخ الذي تناولته في حديثي ليس وحده على

القميصيون : presbytériens : فئة بروتستانتية لا تعرف بسلطة الاساقفة ، ولا تعترف
الا بالقساوسة العاديين . (المترجم)

٢ - الاسقفيون هم الانكليكان . راجا باپويون هم الكاثوليك . (المترجم)

هذا الاعتقاد إنما فلسفته التاريخية هي فلسفة جميع المؤرخين المرموقين في عهد « عودة الملكية » . فينيه (١) وهو أحد معاصري أوغستين قيري ، يؤيد وجهة النظر ذاتها في مؤلفه القيم « الاقطاعية » ، حيث ينظر إلى التطور الاجتماعي على النحو التالي :

« إن المصالح السائدة تقود الحركة الاجتماعية . وتبلغ هذه الحركة هدفاً ، خلال متضادات ، وتتوقف حين بلوغها هذا الهدف فتحل محلها حركة أخرى لا تشاهد عند ابتدائها ولا تكشف عن نفسها الا عندما تصبح الحركة الاقوى هكذا كانت سير الاقطاعية . في الفترة الاولى ، كانت في الحاجات قبل أن تكون في الواقع ، وفي الفترة الثانية ، اصبحت واقعا وكفت عن كونها حاجة ؛ الامر الذي ادى الى اخراجها من حيز الواقع . »

هكذا نجد من انفسنا من جديد على مسافة كبيرة من فلسفة القرن الثامن عشر . لقد كان هلفيسيمس يأخذ على مونتسكيو أنه يدرس الشرائع الاقطاعية باقتباه مفرط ، ويرى أن النظام الاقطاعي منتهى الحماقة وليس بالتالي جديراً ببناء الدراسة . اما مينيه فهو يقبل على العكس من ذلك ، انه من زمن ، هو العصور الوسطى . كان فيه النظام الاقطاعي في الحاجات ، أي انه كان فيه مفيداً للجموع ويقول أن هذه الفائدة هي بالضبط ما ولدته . وكثيراً ما يكرر مينيه أن الناس

١ - مينيه Migulet (١٧٩٦ - ١٨٨٤) .

ليسوا هم الذين يسرون الأشياء ، وإنما الأشياء هي التي تسير الناس . وهو ينظر الى .

« لقد كانت للطبقات الارستقراطية مصالح مضادة لمصالح حزب الأمة . لذلك فالنبلاء وكبار رجال الاكاديموس ، الذين شكلوا الجناح اليميني في الجمعية كانوا في تعارض دائم مع هذا الحزب ، باستثناء بعض أيام الحماسة والاندياع . إن هؤلاء المستائين من الثورة الذين لم يستطيعوا لامعها بفضحياتهم ولا إيقافها بانضمامهم اليها ، قد كافحوا بصورة متغلظة سائر اصلاحاتها »

هكذا ، فإن الجماعات السياسية تمدها مصالح الطبقات . وهذه المصالح ذاتها تولد الاعتبارات السياسية . ويقول لنا مينيه إن دستور ١٧٩١

« كان من صنع الطبقة الوسطى التي كانت أقوى الطبقات في ذلك الحين ؛ إذ أن القوة السائدة ، كما هو معروف ، تتولي دائماً على المؤسسات . وكان نهار ١٠ آب انتفاضة جمهور العوام ضد الطبقة الوسطى وضد العرش الدستوري كما كان يوم ١٤ تموز انتفاضة الطبقة الوسطى ضد الطبقات صاحبة الامتياز وحكم التاج المطلق (١) » .

وكان مينيه ممثلاً مقتنعاً للطبقة الوسطى ، شأنه شأن تيرري ؛ ومنا دامت القضية تقدير عمل هذه الطبقة السياسي ، فمينيه ينهب حتى الى المناداة

(١) ١٤ تموز ١٧٨٩ سقوط الباستيل . (١ آب ١٧٩٢ : انتفاضة جماهير باريس ، أدت

الى ائصال الملك وسقوط الملكية . (المترجم)

بالوسائل المنيفة : « لا يمكن احراز الحق الا بالقوة » .

ونجد عند غيزو (١) الاتجاهات والميول ووجهة النظر ذاتها . ولكن هذه الاتجاهات والميول أكثر بروزاً عنده ، ووجهة النظر هذه أكثر وضوحاً . ففي مؤلفه « بحوث في تاريخ فرنسا » الصادر في عام ١٨٢١ ، يتبين بوضوح كبير ما هو ، في رأيه ، أساس البناء الاجتماعي .

« لقد سعى معظم الكتاب والعلماء والمؤرخين والمؤلفين الى معرفة حالة المجتمع ودرجه حضارته ونوعها عن طريق دراسة مؤسساته السياسية . ولكن الحكمة كانت تقضي اليده بدراسة المجتمع نفسه لمعرفة وتفهم مؤسساته السياسية . فالمؤسسات هي نتيجة ، قبل ان تصبح سبباً ؛ والمجتمع يتجه قبل ان يتبدل بتأثيرها ؛ وبدلاً من البحث عن حالة الشعب في نظام الحكم او أشكاله ، يجب قبل كل شيء ، تفحص حالة الشعب لمعرفة ما هو الحكم الذي كان يجب ويمكن أن يقوم » .

ويمكننا أن نجد نصوصاً بالمعنى نفسه في مؤلفات غيزو وأرمان كاريل وثوكفيل . لذلك ، أعتقد أنه يحق لي القول أن علماء الاجتماع والمؤرخين والنقاد كانوا في مطلع القرن التاسع عشر يبيدوننا الى الحالة الاجتماعية باعتبارها الاساس الأعمق لحوادث المجتمع الانساني . ونعلم ما هي هذه الحالة ، انها « حالة الاشخاص » حسب تعبير غيزو ، اي حالة الملكية . ولكن من أين تأتي هذه الحالة التي يتوقف عليها كل شيء في المجتمع ؟ متى

١ - غيزو : Guizot (١٧٨٧ - ١٨٧٤) : مؤرخ فرنسي أصبح وزيراً في عهد الملك

لوي - فيليب . (المترجم)

حصلنا على جواب واضح ودقيق لهذا السؤال ، ستمكن من تفسير تقدم النوع
البشري وحركته التاريخية ولكن هذه المسألة الكبرى ، التي هي مشكلة
المشاكل ، مازال المؤرخون يتركونها بدون جواب .

في حديثي عن تطور فلسفة التاريخ ، كنت انظر الى فرنسا بوجه خاص ،
وجميع المؤلفين ، الذين عرضت أفكارهم التاريخية كانوا فرنسيين باستثناء
القديسين اوغسطين وهولباخ والآن ، سنجتاز الحدود لنضع أقدامنا على
الارض الألمانية .

فلسفة التاريخ عند شيلنغ

لقد كانت ألمانيا في النصف الأول من القرن التاسع عشر بلد الفلسفة الكلاسيكي ، فقد أخذ فيخته وشيلنغ وهينل وغيرهم كثيرون من كانوا أقل شهرة ، ولم يكونوا أقل شغفاً بالبحث عن الحقيقة ، أخذوا يتعمقون في المسائل الفلسفية ، تلك المسائل الخفية التي أصبحت قديمة جداً والتي ستبقى مع ذلك جديدة على اللوام .

وبين هذه المسائل الكبرى ، تحتل فلسفة التاريخ مكاناً هاماً ، وإن يذهب هباءً أن نرى كيف كان الفلاسفة الألمان يحاولون مسأله معرفة أسباب تقدم النوع الانساني وحركته التاريخية . ولكن ، بما أنه ليس لدينا متسع من الوقت لتحليل فلسفة التاريخ الخاصة بكل منهم في تفصيلها ، فنحن مرغمون على الاكتفاء بتوجيه السؤال إلى الفيلسوفين الرئيسيين : شيلنغ وهينغ ؛ وزد على ذلك أنه لن يسعنا إلا أن نلم للماماً بسيطاً بأفكارهم التاريخية ، وهكذا فيصدد شيلنغ (١) لن نتحدث إلا عن مفهومه للحرية .

١ — شيلنغ Schelling ١٧٧٥ - ١٨٥٤

إن التطور التاريخي سلسلة من الحوادث الخاضعة لقوانين ، والحوادث الخاضعة لقوانين هي حوادث ضرورية . مثلاً ، المطر . المطر هو حدث خاضع لقوانين ؛ وهذا يعني أنه في ظروف معينة ، ثمة نقاط في الماء تتساقط بالضرورة على الأرض . وهذا يفهم بسهولة كبيرة عندما تتعلق القضية بنقاط الماء التي ليس لها وعي أو إرادة .

ولكننا في الحوادث التاريخية ، لا نواجه أشياء جامدة ، وإنما نواجه بشراً يعملون ، والبشر يتمتعون بالوعي والإرادة ، فيحق لنا بالتالي أن نسأل عما إذا كانت الضرورة — التي لا يوجد خارجها مفهوم علمي المظواهر في التاريخ كما في علم الطبيعة — لا تنفي فكرة الحرية الإنسانية . وإذا صننا المسألة بكلمات أخرى فهي تطرح على النحو التالي : هل من سبيل لتوفيق بين العمل الإنساني الحر والضرورة التاريخية ؟

يبدو لنا للنظرة الأولى أن ذلك غير ممكن وأن الضرورة تنفي الحرية وبالعكس . ولكن الأمور ليست على هذا الشكل إلا بالنسبة لمن يتوقف نظره عند سطح الأشياء ، عند قشرة الظواهر . في الحقيقة ، إن هذا التناقض « الشهير » ، هذا التناقض المزعوم بين الحرية والضرورة ليس له وجود . فالضرورة لا تنفي الحرية ، إنما شرطها وأساسها . هذا بالضبط ما كان يعمل شيلنغ للتدليل عليه في أحد فصول كتابه « مذهب المثالية العالمية » .

يرى شيلنغ أن الحرية مستحيلة بدون الضرورة : وإذا لم يكن بوسعنا الاعتماد ، في أفعالنا ، إلا على حرية الناس الآخرين ، فإنه يستحيل علي أن أتنبأ بنتيجة أفعالي ، ما دام

أكل حساب أحسبه قد تطيح به في كل لحظة حرية النير ،
وبالتالي قد ينتج عن أفعالي خلاف ما كنت أتوقع

هكذا تكون حرتي معدومة وحياتي خاضعة للمصادفة ،
ولا أستطيع التأكد من نتائج أفعالي إلا في الحالة التي أستطيع
فيها التنبؤ بأفعال النير ، ولكي أستطيع التنبؤ بها ، ينبغي أن
تكون خاضعة لقوانين ، أي أن تكون محددة ، أن تكون
ضرورية . ضرورة أفعال الآخرين هي إذن الشرط الاول
لحرية أفعالي :

ولكن من جهة أخرى ، عندما يعمل الناس بصورة
ضرورية ، يمكنهم في الوقت نفسه أن يحافظوا على الحرية
الامة لأفعالهم .

ما هو الفعل الضروري ؟ إنه الفعل الذي يستحيل على فرد
معين أن لا يفعله في ظروف معينة . ومن أين تأتي استحالة عدم
القيام بهذا الفعل ؟ إنها تأتي من طبيعة هذا الانسان التي صاغها
ورائته وتطوره السابق . ان طبيعة هذا الانسان لا تسمح له
بأن لا يسلك سلوكاً معيناً في ظروف معينة . هذا واضح
ليس كذلك ؟ وإذا أضفنا أن طبيعة هذا الانسان لا تسمح له
بأن لا يعمل بعض التزعات الارادية ، نكون قد وقفنا بين مفهوم
الحرية ومفهوم الضرورة . أكون حراً عندما يمكنني أن أفعل
كما أريد ، وفلي الحر هو في الوقت نفسه ، ضروري ، مادام

نزوعي الاوادي يحدده تكويني المعنوي والظروف المهيئة .
فان ضرورة اذن لا تنفي الحرية .

الضرورة هي الحرية بالذات ، منظورا إليها من جانب آخر
أو من زاوية أخرى .

وبعد أن لفت انتباهكم إلى الجواب الذي أعطاه شيلتغ على المعضلة الكبرى
معضلة الضرورة والحرية ، أنتقل إلى معاصره ، إلى رفيقه وخصمه ، هيغل ،

فلسفة التاريخ عند هيجل

ان فلسفة هيجل (١) هي كفلسفة شيلينغ ، فلسفة مثالية . فهو يرى أن الفكر (او الفكرة) (٢) هو الذي يكون أساس كل ما هو موجود . بل روحه ان صح التعبير . والمادة نفسها ليست الا عطاء من اعطاء وجود الفكر أو الفكرة . هل ذلك ممكن ؟ أحقاً أن المادة ليست الا عطاء من اعطاء وجود الفكر ؟

تلك مسألة ذات أهمية كبرى من الوجهة الفلسفية . ولكن ليس علينا ان نتالجها هنا . وما يلزمنا هو دراسة الافكار التاريخية التي كانت تشاد على هذا الاساس المثالي في مذهب هيجل .

يرى هذا المفكر الكبير ان التاريخ ليس سوى تفتح هذا الفكر الاسكوتي وانبساطه في الزمان . وفلسفة التاريخ هي التاريخ منظور اليه بنصحاء . وهي تأخذ الوقائع كما هي ، والفكرة الوحيدة التي تضيفها هي الفكرة القائلة بأن العقل يحكم العالم . هذا يذكركم دون ريب بفلسفة القرن

(١) : Hegel هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١)

(٢) : الفكر ، Esprit ، الفكرة : Idées .

الثامن عشر التي كانت تعتبر ان الرأي او العقل هو الذي يحكم العالم .
ولكن هينل كان يفهم هذه الفكرة على نحو خاص . وهو يقول في
دروسه عن فلسفة التاريخ ان أنكساغور (١) هو اول من اقر فلسفياً بأن
العقل يحكم العالم ؛ ولم يكن يقصد بالعقل ذكاء يعي نفسه ، او فكراً بوصفه
فكراً ، بل قوانين عامة ان حركة منظومة الكواكب السيارة نحصل وفقاً
لقوانين ثابتة ، وهذه القوانين هي علتها ، ولكن لا الشمس ولا السيارات
التي تتحرك وفقاً لهذه القوانين هي ذلك . فالعقل الذي يحكم التاريخ هو اذن ،
في نظر هينل ، عقل غير واع ، وهو ليس سوى مجمل القوانين التي تحدد
الحركة التاريخية .

اما رأي البشر ، ذلك الرأي الذي كان يعتبره الفلاسفة الفرنسيون في
القرن الثامن عشر المافع الرئيسي للحركة التاريخية ، فان هينل يعتبره ، في
معظم الاحوال ، كشيء يحدده نمط الحياة ، او بتعبير آخر الوضع الاجتماعي .
فهو يقول مثلاً ، في فلسفته التاريخية ، ان سبب انحطاط مدينة سبارته
كان التفاوت الهائل بين الثروات ويقول ايضاً ان الدولة بوصفها تنظيمياً
سياسياً ، تستمد اصلها من تفاوت الثروات ونضال العقراء ضد الاغنياء .

وليس هذا كل شيء . فان اصل العائلة مرتبط ، حسب رأيه ، ارتباطاً وثيقاً
بالتطور الاقتصادي الشعوب الابتدائية . وبالاتعمار ، كان هينل رغباً مثاليته ،
يلجأ ، كالمؤرخين الفرنسيين الذين تناولناهم فيما سبق ، الى الوضع الاجتماعي
باعتباره الاساس الاعمق لحياة الشعوب . وفي ذلك ، لم يتأخر هينل عن

١ - : أنكساغور Anaxagore .

عصره ، ولكنه لم يتقدم عليه ايضاً ، وهو يبقى عاجزاً عن تفسير اصل الوضع الاجتماعي ، ما دام قوله — ان الوضع الاجتماعي لشعب ما في عهد معين يتوقف ، مثل وضعه السياسي والديني والبدعي والاخلاقي والثقافي ، على روح العصر — لا يفسر شيئاً .

ويستبعد هينغل المثالي بالفكر ، ويعتبره الدافع الاخير للحركة التاريخية :
فننما ينتقل شعب ما في تطوره من درجة الى اخرى ، ففرد ذلك ان الفكر المطلق (او الكوني) — وهذا الشعب ليس الا اداته — قد ارتقى الى مرحلة اعلى في نموه . ولما كانت مثل هذه التفسيرات لا تعلل اي شيء على الاطلاق ، فقد وجد هينغل نفسه في ذات الحلقة المفرغة التي وقع فيها علماء الاجتماع والمؤرخون الفرنسيون : فهم يفسرون الوضع الاجتماعي بحالة الافكار ونحالة الافكار بالوضع الاجتماعي .

نرى من جميع الجهات — الفلسفة والتاريخ بالمعنى الاصلي والادب على السواء — ان تطور العالم الاجتماعي في مختلف فروعها كان ينهي الى مسألة واحدة هي تفسير اصل الوضع الاجتماعي . وما دامت هذه المسألة بلا حل ، كان العلم لا ينفك عن الدوران في حلقة مفرغة ، باعلانه ان ب سبب ا مع تعيينه ا كسبب ب ، وبالمقابل ، فكل شيء سينجلي عند حل مسألة الوضع الاجتماعي .

المفهوم الماركسي للتاريخ

لقد استهدف ماركس حل هذه المسألة عندما صاغ مفهومه المادي . ويروي ماركس نفسه في مقدمة مؤلفه « نقد الاقتصاد السياسي » كيف قادته دراساته الى هذا المفهوم .

لقد أفضت بحائي الى النتيجة التالية : لا يمكن تفسير العلاقات الحفرقية ، واشكال الدولة لا بذاتها ولا بالتطور العام المزعوم للفكر البشري ، وإنما هي تستعد جنورها من شروط الحياة المادية التي كان يفهمها هيجل تحت اسم « المجتمع المدني » (١) اسوة بالمفكرين الانكليز والفرنسيين في القرن الثامن عشر .

وكاترون ، هذه هي النتيجة نفسها التي انتهى اليها المؤرخون وعلماء الاجتماع والنقاد الفرنسيون كما انتهى اليها ايضاً الفلاسفة المثاليون الايلان . ولا يمكن ماركس يذهب ابعد من ذلك . فهو يسأل عن الاسباب التي تحدد المجتمع المدني ، ويحيب انه ينبغي البحث عن تشريح المجتمع

١ - المجتمع المدني : la société civile

المدني في اقتصاد سياسي . هكذا ، فالوضع الاقتصادي لشعب ما ، هو الذي يحدد وضعه الاجتماعي ، والوضع الاجتماعي لهذا الشعب يحدد بدوره وضعه السياسي والديني وهكذا نواليك . ولكنكم متساوون عما إذا لم يكن للوضع الاقتصادي من سبب ايضاً ؟ لا ريب ان لهذا الوضع سببه الخاص به ، ككل شيء في هذه الدنيا ، وهذا السبب ، السبب الاساسي لمجموع التطور الاجتماعي وبالتالي لكل حركة تاريخية ، هو الصراع الذي يخوضه الانسان مع الطبيعة في سبيل وجوده . واليك ما يقوله ماركس بهذا الصدد :

« ان الناس اثناء الانتاج الاجتماعي لميشتهم يقيمون فيما بينهم علاقات معينة ضرورية مستقلة عن ارادتهم . وتطابق علاقات الانتاج هذه درجة معينة من تطور قوائم المنتجة المادية . ومجموع علاقات الانتاج هذه يشكل البناء الاقتصادي للمجتمع ، أي الاساس الواقعي الذي يقوم عليه بناء علوي (١) ، حقوقي وسياسي ، وتطابقه كذلك اشكال معينة من الوعي الاجتماعي . ان اسلوب انتاج الحياة المادية يكيف سير الحياة الاجتماعي والسياسي والفكري ، بصورة عامة . فليس وعي الناس هو الذي يحدد معيشتهم ، بل ، على العكس من ذلك ، معيشتهم الاجتماعية هي التي تحدد وعيهم . وعندما تبلغ قوى المجتمع المنتجة درجة معينة في تطورها ، تدخل في تناقض مع علاقات الانتاج الموجودة ، او مع علاقات الملكية . وليست هذه سوى التعبير الحقوقي لتلك - تلك العلاقات التي كانت تتحرك ضمنها القوى

١ - البناء العلوي : la superstructure

المنتجة الى ذلك الحين . فبعد ان كانت هذه العلاقات اشكالاً
لتطور القوى المنتجة تصبح قيوداً لهذه القوى ، وعندئذ يفتح
عهد ثورات اجتماعية . فان تغير الاساس الاقتصادي يززع كل
البناء العلوي الهائل على صور مختلفة من السرعة او البطء .
وعند دراسة هذه الانقلابات ، ينبغي دائماً التمييز بين الانقلاب
المادي لشروط الانتاج الاقتصادية - هذا الانقلاب الذي يلاحظ
بالدقة الخاصة بعلوم الطبيعة - وبين الاشكال الحقوقية والسياسية
والدينية والفنية والفلسفية ، أو بكلمة مقتضبة ، الاشكال
الايدولوجية التي يتصور فيها الناس هذا النزاع ويقودونه الى
نهايتها . فكما انه لا يمكن الحكم على فرد وفقاً للفكرة التي لديه
عن نفسه ، كذلك لا يمكن الحكم على عهد انقلاب كهذا وفقاً
عن نفسه . بل ينبغي تفسير هذا الوعي بتناقضات الحياة المادية
ونزاع قوى المجتمع المنتجة مع علاقات الانتاج . إن أي تكوين
اجتماعي لا يموت أبداً قبل ان تتطور القوى المنتجة التي يستطيع
ان يفسح لها المجال ، وان علاقات الانتاج الجديدة ، المتفوقة على
القديم ، لا تظهر أبداً قبل ان تنضج شروط وجودها المادية في
قلب المجتمع القديم . ولهذا فالإنسانية لاتضع أمامها ابداً إلا
المسائل التي تستطيع حلها . إذ أنه يتضح ، عند الامعان في الامور
ان المسألة نفسها لا تبرز الا عندما تكون الشروط المادية لحلها
موجودة او ، على الاقل ، آخذة في التكوين .

اني افهم تماماً ان هذا الكلام قد يبدو غامضاً ، رغم وضوحه ودقته .

لذلك ابادر الى شرح الفكرة الاساسية في المفهوم المادي للتاريخ .
ترجع فكرة ماركس الاساسية الى الامر التالي : ان علاقات الانتاج
تحدد جميع العلاقات الاخرى التي توجد بين الناس في حياتهم الاجتماعية . واما
علاقات الانتاج فيحددها وضع القوى المنتجة .
ولكن اولاً ، ماهي القوى المنتجة ؟

ان الانسان مرغم على النضال في سبيل وجوده ، شأنه شأن سائر الحيوانات .
وكل نضال يفترض بذل قوى معينة . وحالة القوى تحدد نتيجة النضال . وعند
الحيوانات ، توقف هذه القوى على بنية اجهاز العضوي بالذات : قوى
الخصان البري تختلف تماماً عن قوى الاسد ، وسبب هذا الاختلاف يكن
في اختلاف التنظيم العضوي . والتنظيم العضوي للانسان يؤثر بالطبع تأثيراً
حاسماً على طريقة نضاله في سبيل وجوده ، وعلى نتائج هذا النضال . وهكذا
مثلاً ، الانسان مجهز باليد . صحيح ان اقرباء دوي الايدي الاربع (القردة)
يملكون الايدي ايضاً ، ولكن ايدي القردة اقل تكيفاً مع الاعمال المتنوعة .
فاليد هي الاداة الاولى التي استخدمها الانسان في نضاله من اجل الوجود
كما بين لنا ذلك دارون .

ان اليد مع النراع هي الاداة الاولى والآلة الاولى التي يستخدمها الانسان
وعضلات النراع تؤدي مهمة التابض الذي يضرب او يرمي . غير ان الآلة
أخذت تظهر خارج الجسم شيئاً فشيئاً . لقد افاد الحجر في بادئ الامر بثقله ،
بكتلته . وفيما بعد ، ثبتت هذه الكتلة على مقبض . وهكذا نشأت البصلة
والمطرفة . ان اليد وهي الاداة الاولى عند الانسان تخضعه لانتاج ادوات
اخرى وتكيف الماده للنضال ضد الطبيعة أي ضد بقية الماده المستقلة .

وكما ارتقت هذه المادة المستعبدة ، نما استخدام الادوات والآلات وازدادت
ايضا قوة الانسان ضد الطبيعة ، ابي ازدادت سلطته على الطبيعة لقد عرف
الانسان بانه حيوان يصنع آلات . وهذا التعريف لأعمق مما يظن للوهلة الاولى
فمنذ ان اكتسب الانسان القدرة على استعباد وتكييف قسم من المادة للفضال
ضد ما تبقى منها ، لم يعد للاصطفاء الطبيعي وللأسباب الماثلة الاخرى الا أثر
ثانوي على التبدلات الجسدية عند الانسان .

ولم تعد أعضاؤه هي التي تتغير ، بل ادواته والاشياء التي يكيفها مع
مقتضيات استعماله بمساعدة ادواته : فلم يعد جلده هو الذي يتغير بتغير
المناخ بل لباسه . والتحول الجسدي للانسان يتوقف (او يكاد) ، ويحل
عنه تطوره التكنيكي ؛ والتطور التكنيكي هو تطور القوى المنتجة ؛
وتطور القوى المنتجة يؤثر تأثيراً حاسماً على شكل اجتماع البشر وعلى حالة
ثقافتهم . ويميز العلم ، في ايامنا عدة انماط اجتماعية : ١ - الصيد ،
٢ - الراعي ، ٣ - المزارع المستقر ، ٤ - الصناعي والتجاري ، وكل من
هذه الانماط يميزه علاقات معينة بين الناس ، علاقات لا تتوقف على ارادتهم بل
تحددتها حالة القوى المنتجة .

لنأخذ مثلا علاقات الملكية . ان نظام الملكية يتوقف على اسلوب
الانتاج ، اذ ان توزيع الثروات ، واستهلاكها مرتبطان ارتباطاً وثيقاً بطريقة
الحصول عليها .

فالشعوب البدائية التي تعيش على الصيد ترغم في كثير من الاحيان ،
على حشد افراد عديدين لقتل الحيوانات الكبرى . هكذا يصيد
الاورستراليون الكونغر بجاعات تتألف من عدة عشرات من الافراد وتجميع

الاسكيمو عدداً من الزوارق الصغيرة لصيد الحوت . وتعتبر الكناغر التي التي اقتنصت والحيتان التي جلبت الى الشاطئ . ملكاً مشتركاً ويأكل منها كل فرد حسب شهيته . وتعتبر ارض كل قبيلة عند الاوستراليين ، كما عند جميع الشعوب التي تعيش على الصيد ، ملكاً جمعياً ، وكل فرد يصيد فيها حسب رغبته ، ولا يقيد الا شرط عدم التمدي على ارض القبائل المجاورة

ولكن في وسط هذه الملكية المشتركة ، تعتبر بعض الاشياء التي تستخدم الفرد وحده كاللبسة والاسلحة ملكاً فردياً ، بينما تكون الخيمة واثامها ملكاً للعائلة . كذلك فالزورق الذي تستخدمه جماعات يتألف من خمسة الى ستة رجال ، هو ملك مشترك لهؤلاء الاشخاص . فما يقرر الملكية اذن هو اسلوب العمل ، اسلوب الانتاج .

لقد قطعتُ بلطةً من الصوان بيدي فهي ملك لي . وبنيتُ الكوخ الصغير مع زوجتي وأولادي فهو لاسرتي . لقد اضطدت مع ابناء قبيلتي ، فالحوانات التي صرعتها هي ملك مشترك لنا . والحوانات التي قتلها بمفردي على ارض القبيلة هي ملك لي . وإذا حدث ان قضى غيري على الحيوان الذي جرحته انا ، فهو ملك للاثنين والجلد ملك لمن وجه الضربة القاضية . ولهذا الغرض ، فان كل سهم يحمل علامة المالك .

وثمة أمر يستحق الاعتبار : لقد كان صيد الثور الوحشي عند هنود اميركا الشمالية ، قبل دخول الاسلحة النارية ، خاضعاً لتواعد بالغة الدقة : فاذا ادخلت عدة أسهم في جسم الثور ، كان موضعها يحدد لمن يعود هذا أو ذاك من اجزاء الحيوان الصريع ؛ وهكذا فالجلد ملك لمن كان موضع سهمه اقرب الى القلب . ولكن منذ دخول الاسلحة النارية ، وبما أن الطلقات

لا تحمل علامات مميزة ، أصبحت الثيران الصريمة توزع بالتساوي ؛ وهي إذن تعتبر ملكاً مشتركاً . وبين هذا المثل بجلاء الارتباط الوثيق الموجود بين الانتاج ونظام الملكية .

هكذا ؛ فعلاقات الناس المتبادلة في الانتاج تقرر علاقات الملكية ، او حالة الملكية كما كان يقول غيزو . ولكن متى عرفت حالة الملكية ، يصبح فهم تكوين المجتمع امراً يسيراً ، إذ أن هذا التكوين يتلبس شكل الملكية . وبذلك ، فإن نظرية ماركس تحمل المسألة التي استعصت على مؤرخي وفلاسفة النصف الاول من القرن التاسع عشر .

المفهوم المادي للتاريخ

حول كتاب « أبحاث عن المفهوم المادي للتاريخ » تأليف
انطونيو لابرولا ، استاذ في جامعة روما ، مع مقدمة ليج ،
سوريل ، باريس ١٨٩٧

« المادة الاقتصادية » (١)

لنعترف بالأمر : لقد كان يختلفنا بعض التخوف عندما فتحنا هذا الكتاب الذي ألفه استاذ في جامعة روما ، إذ أن مطالعتنا لبعض المؤلفات العائدة لبعض مواطنيه كآشيل لوريا مثلاً (وبوجه خاص لكتابة (النظرية الاقتصادية لتكوين السياسي ») كانت قد افزعتنا ليس غير ، ولكننا اضطررنا منذ الصفحات الاولى الى ادراك الحقيقة وهي أننا أخطأنا وأنه ليس من شيء مشترك بين آشيل لوريا وأنطونيو لاريو ، وبعد ان قرأنا الكتاب بكامله تمينا أن نحدث عنه القارئ الروسي ؛ ونحن نأمل أنه لن يتشكى من ذلك .

لما أقل الكتب الجيدة :

لقد صدر مؤلف لاريو لا باديء الامر باللغة الايطالية . وإن ترجمته للفرنسية ثقيلة وفائشة حقاً في بعض المواضع . ونحن لا نتردد في تأكيد ذلك رغم أن الاصل الايطالي ليس في حوزتنا . ولكن المؤلف ليس مسؤولاً عن الترجمة الفرنسية . وبعد ، فإن افكار لاريو تبقى واضحة حتى في هذه الترجمة الركيكة . لتفحص إذن هذه الافكار .

١ - عنون هذه الدراسة من وضع المترجم .

.. إن السيد كاريف (١) الذي يقرأ ويملك فن تشويه كل « مؤلف » يمت بصلة إلى المفهوم المفهوم المادي لتاريخ كما هو معلوم ، سيصنف بالتأكيد كاتبنا تحت عنوان « المادية الاقتصادية » ، سيكون مخطئاً في حكمه . إن لا بريولا يؤيد بحزم وبما يكفي من الانسجام المفهوم المادي للتاريخ ، غير أنه لا يعتبر نفسه « مادياً اقتصادياً » ، بل يرى أن هذه التسمية تصلح لكتاب من نوع ت . روجرس الدائع العيب ، ولا تصلح له وإن يفكرون مثله . ولا شيء أصح من ذلك ، رغم أنه قد لا يبدو واضحاً للوهلة الأولى .

اسألوا مفكراً شعبياً أو ذاتياً ماذا يقصد بالمادي . سيجيبكم أنه من يعزى للعامل الاقتصادي دوراً غالباً في الحياة الاجتماعية . هكذا يفهم الشعبون والذاتيون المادية الاقتصادية . وعلينا أن نعترف بالواقع ثمة من يعزون « العامل » الاقتصادي دوراً غالباً في حياة المجتمعات البشرية . فقد أشار السيد ميخايلوفسكي (٢) مراراً إلى أن لوي بلان قد تحدث عن سيطرة العامل المذكور قبل معلم (٣) من يرفون باسم الاتباع الروس ولكن هناك أمراً لا تهميه : لماذا يتوقف باحثنا الاجتماعي

١ - كاريف : مؤرخ مثالي روسي حارب الماركسية بعنف . - المترجم -

٢ - ميخايلوفسكي : أحد مفكري التسمية « (النازوديه) » وهو من انصار النهج المثالي الذاتي في علم الاجتماع . وقد رد عليه لينين في كتابه « من هم اصناف الشعب وكيف يجارون الاشتراكيين الديمقراطيين » . - المترجم -

٣ - المقصود بالمعلم كارل ماركس . أما الانواع فهم اتباعه . وقد كانت الصحافة الماركسية الشرعية تلجأ إلى هذه التعابير لتضليل الرقابة القيصريّة ولتعرض نفسه ، كانت تسمي ماركس « عالماً اقتصادياً معروفاً » ، و« اجناس » كتاباً معروفاً ، ونشر نيسفسكي « مؤلف كتاب محاولات حول الثورة الفوغولي في الادب الروسي » او مؤلف كتاب ملاحظات حول الاقتصاد السياسي عند ستوارت ميل . - المترجم -

المحترم عند لوي بلان؟ يجدر به أن يعلم أن لوي بلان كان له في هذا المضمار أسلاف عديدون. فغيزو و مينيه و أوغستين تيري وتو كفيل (١) قد اعترفوا جميعاً بسيطرة العامل الاقتصادي. وبذلك يكون جميع هؤلاء المؤرخين ماديين اقتصاديين وفي أيامنا، إن ت. روجرس الذي سبق ذكره يظهر هو أيضاً ككادي اقتصادي مقتنع في كتابه «التعميل الاقتصادي لتاريخ» حيث اعترف هو أيضاً بتسلط «العامل» الاقتصادي. ولا ينجم عن ذلك طبعاً ان أفكار ت. روجرس مماثلة لأفكار لوي بلان. فقد كانت وجهة نظر روجرس وجهة نظر الاقتصاد البرجوازي، بينما كان لوي بلان، في وقت ما، احد ممثلي الاشتراكية الخيالية ولو سألم روجرس عن رأيه في النظام الاقتصادي البرجوازي، لاجابكم أن هذا النظام يرتكز على الخصائص الجوهرية في الطبيعة الانسانية، وان تاريخ قيامه هو بالتالي تاريخ الازالة التدريجية للعقبات التي كانت تعيق تبلي الخصائص المذكورة، أو حتى تحول دونها.

أما لوي بلان فيظن لسك أن الرأسمالية هي ذاتها احدى العقبات التي أقامها الجهل والمنف والتي تعيق انشاء نظام اقتصادي يتماشى في الاخير حقاً مع الطبيعة الانسانية. نرى أن الفرق أساسي. فمن منها كان أقرب إلى العوالب في الحقيقة. نعتقد أنها كانت تقريباً على بعد واحد منه. ولكننا لا نريد ولا نستطيع هنا التوقف عند هذه المسألة. إن ما يهمنا في الوقت الحاضر هو غير ذلك تماماً. ونرجو أن يلاحظ القاري، أن العامل الاقتصادي المسيطر في الحياة الاجتماعية هو، حسب رأي لوي بلان وروجرس، (إذا استعملنا تعبيراً رياضياً) تابع للطبيعة الانسانية، وقبل كل شيء «للذكاء والمخارف الانسانية». وينبغي لنا أن نقول الشيء نفسه عن

١ - غيزو، مينيه، تيري، توكنيل : مؤرخون برجوازيون فرنسيون، عاشوا في

عهد «عودة الملكية». راجع هذا الكتاب ص ٢٠

- المترجم -

مؤرخي عهد « عودة الملكية » الفرنسيين الذين ذكرناهم . وكيف نصف المفهوم الذي يكونه عن التاريخ اولئك الذين مع تأكيدهم بأن العامل الاقتصادي يسيطر على الحياة الاجتماعية ، هم مقتنعون بأن هذا العامل أي اقتصاد المجتمع هو بدوره عمرة المعارف والمفاهيم الانسانية ؟ لا يمكننا أن نصف هذا المفهوم إلا بالمثالية . هكذا فالمادية الاقتصادية لا تنفي ، بمجرد كونها مادية اقتصادية ، المثالية التاريخية . أو بالأحرى ، لمراعاة دقة تامة ، بدلاً من أن نقول : لعلمنا لم تكن حتى الآن ، في معظم الاحيان الاشكالات من اشكال المثالية . ويتضح لنا من هنا لماذا يرفض رجال من نوع أنطونيو لابرولا تسمية ماديين اقتصاديين . ذلك لأنهم ماديون منسحبون ولأن مفهومهم للتاريخ هـ . و عكس المثالية التاريخية تماماً

نظريّة العوامل

قد يقول لنا السيد كودرين^(١) : «إنكم على غرار أتباع عديدين ، تلجؤون الى مناقضات غريبة وتتلاعبون بالالفاظ وتثرون الفبار على العيون وتبلمعون السيوف . فتحولون المثاليين الى ماديين اقتصاديين . ولكن في هذه الحال ، ماذا يراد حسب رأيكم ، بالماديين الحقيقيين والمنسجمين اهل يبنون فكرة تسلط العامل الاقتصادي ؟ هل يقرون بأن ثمة عوامل اخرى تدخل في التاريخ الى جانب هذا العامل ، وانه من البعث أن نسمى لاكتشاف العامل المسيطر ؟ إذا كان الماديون الحقيقيون والمنسجمون لا يميلون فملاً الى ادخال العامل الاقتصادي في كل شاردة فهذا امر يتلج صدورنا .»

جوابنا الى السيد كودرين أن الماديين الحقيقيين والمنسجمين لا يميلون الى ادخال العامل الاقتصادي في كل شاردة، وإن السؤال نفسه ما هو العامل المسيطر في الحياة الاجتماعية ؟ يبدو لهم على كل حال مطروحاً بشكل سيء . ولكننا نتمنى للسيد كودرين . أن لا يتبسط قبل الأوان . فالماديون الحقيقيون والمنسجمون لم يصلوا الى هذه القناعة تحت تأثير المادة الشعبية والنايتين ، ولا يسهم إلا ان يهزوا من الاعتراضات التي يوجهها هؤلاء الى فكرة سيطرة العامل الاقتصادي .

— المترجم —

١ - كودرين : احد المفكرين « الشيئين » .

هذا فضلاً عن اعتراضات السادة الشعيين والذاتيين تأتي بعد أوأها . فننذ زمن هينل ، كان واضحاً أن السؤال عن العامل المسيطر في الحياة الاجتماعية مؤالفي غير محله . والمثالية الهيغيلية كانت تنقي حتى امكانية طرح اسئلة من هذا النوع . فكم بالاحرى المادية الديالكتيه المعاصرة ا منذ صدور كتاب «نقد الانتقاد النقدي» (١) وخاصة الكتاب الذائع الصيت « مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي » (٢) ، لا يستطيع الماحكة حول الاهمية النسبية التي تعود لمختلف العوامل التاريخية - الاجتماعية سوى المتخطفين في مجال النظرية . وبما ان هذا القول لن يدهش السيد كودرين وحده فاني ابادر الى شرحه .

ماذا يقصد بالعوامل التاريخية - الاجتماعية ؟ وكيف تكون فكرة الناس عنها ؟

اليكم مثل : يريد الاخوان غراكوس (٣) ان يضا حداً لاحتكار الاملاك الاميرية من قبل ارباء روما ، هذا الاحتكار المشؤوم بالنسبة لروما . ويقاومها

١ - «نقد الانتقاد النقدي» او «العائلة المقدمه» مؤلف لماركس والمجلس صدر في سنة ١٨٤٥ وفيه يصفى ماركس واتجلس حساب الهيغيليين اليسارين ويضعان اسس المنهج الجديد - المترجم -

٢ - « مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي » : مؤلف لماركس صدر عام ١٨٥٩ وفي مقدمته عرض موجز لمبادئ المادية التاريخية ذائع الصيت ، راجع هذا الكتاب ص ٤٦ - ٤٧ - المترجم -

٣ - غراكوس : للشقيقتان تيبيريوس (قتل في سنة ٤٣ ق. م) وكايوس (قتل في سنة ١٢١ ق. م) . وهما من ام زعماء روما ، حاولا ان يضا حداً بلشع الارستقراطية الرومانية التي استولت على القسم الاكبر من اراضي الفتح . - المترجم -

هؤلاء الاثرياء ، فيبدأ الصراع ، ويسمى فيه كل من الفريقين الى تحقيق هدفه .
وإذا أردت ان أصف هذا الصراع ، يمكنني ان اظهره كصراع بين الإهواء
الانسانية . فتكون الإهواء وعوامله في تاريخ روما الداخلي . غير أن الاخوين
غراكوس وخصومها قد استخدموا في هذا الصراع الوسائل التي كان القانون
العام الروماني يوفرها لهم . وبالطبع سأخذ هذه الوسائل في حسابي ، لدى عرض
القضية ، فيظهر القانون العام الروماني هو ايضا ، كعامل لتطور الجمهورية
الرومانية الداخلي . ومن جهة أخرى ، كانت لخصوم غراكوس مصالح مادية
تدفعهم الى ابقاء هذه التجاوزات العتيقة الجذور ، بينما كان لانصار غراكوس من
جانبهم مصلحة مادية تدفعهم إلى إلغاء هذه التجاوزات . سوف أتوه بهذه الناحية
فيظهر الصراع الذي أصفه كصراع بين مصالح مادية أي كفضال بين الطبقات ،
كفضال يقوم به الفقراء ضد الاثرياء . هذا هو العامل الثالث الاجدر بالاهتمام ،
العامل الاقتصادي الشهير . وإذا توفر لديك الوقت ، يمكنك أيها القارئ العزيز
ان تفكر ما طاب لك التفكير لكي تحدد ما هو العامل الذي تسلط على سائر
العوامل الاخرى في تطور روما الداخلي ، وتستجد في عرضي ما يكفي من المعطيات
لإثبات رأيك في هذا الصدد ، مما كان هذا الرأي .

أما أنا فلن أخرج الآن من دوري كراويل عادي بسيط ولن أتحمس لموضوع
العوامل وأهميتها المقارنة لأهمني قط ويكفيني باعتباري راوياً ان أصف الحوادث
بما يمكن من الصواب والحوية . ويترتب علي ، تحقيقاً لهذا الغرض ، ان أقيم بينها
بعض الترابط ، ولو كان خارجياً ، وان أرتبها حسب نظرة ما ، وعندما أتكلم
عن الإهواء التي كانت تثير الفريقين المتنازعين أو عن التنظيم السياسي الذي كان
يسود روما في ذلك الحين ، أو أخيراً عن تفاوت الثروات الذي كان يحكمها ، فذلك

لكي احمض حديثي بطابع التلاحم والحيوية. حتى إذا ما بلغت هذا الهدف اكون قد ارضيت نفسي تماماً، واترك للفلاسفة بهدوء مهمة تقرير ما إذا كانت الالهواء تسيطر على الاقتصاد، أو الاقتصاد على الالهواء، أو أخيراً إذا لم يكن هناك اي عامل مسيطر، بمعنى ان كل عامل مسيطر، يتبع القاعدة الذهبية القائلة: عش ودع الآخرين يعيشون.

هذا إذا لم اخرج من دوري كراو بسيط لا يفهم دقائق الامور. ولكن اذا تخليت عن هذا الدور، إذا شرعت في «فلسفة» الحوادث التي وصفتها، عندئذ سوف لا يمكثني الاكتفاء بتلاحم خارجي صرف للحوادث، بل سأريد كشف اسبابها العميقة، وهذه العوامل نفسها - الالهواء البشرية والحقوق العامة والاقتصاد التي شددت عليها باديء الامر وبرزتها بما يكاد يكون غريزة الفنان، ستلبس في نظري اهمية جديدة هائلة. ستظهر لي بالضبط كأنها تلك الاسباب العميقة التي كنت ابحث عنها، تلك «القوى الخفية» التي تفسر الحوادث. وبذلك اكون قد ابدعت نظرية العوامل.

ولا بد من ظهور هذه النظرية، بشكل من الاشكال، خيماً لا يقتصر المهتمون بالحوادث الاجتماعية على النظر اليها ووصفها، بل يحضون عن الصلة التي تربطها.

وعدا ذلك، فنظرية العوامل تتطور وتنمو بصورة موازية لتقسيم العمل في العلوم الاجتماعية. وبالْحَقِيقَة، ان كل هذه العلوم - الاخلاق والسياسة والحقوق والاقتصاد السياسي الخ... - تتناول موضوعاً واحداً مثلاً هو نشاط الانسان الاجتماعي. ولكن كلاً منها يدرس هذا النشاط من وجهة نظره الخاصة - لو كان الامر متروكاً للسيد ميخائيلوفسكي لقال ان لكل منها «وتره». وكل من هذه «الوتار» يمكن اعتباره عاملاً من عوامل التطور الاجتماعي. فيمكننا اليوم ان

نميز عدداً من العوامل يساوي عند « مواد البحث » في العلوم الاجتماعية .
وبعد ، نأمل من القارئ ان يفهم ماذا يقصد بالعوامل التاريخية - الاجتماعية ،
وكيف تتكون فكرة الناس عنها . ان العامل التاريخي الاجتماعي هو مفهوم
مجرد ، وفكرة الناس عنه هي نتيجة عمل تجريدي . وبالتجريد ، تبدو لنا مختلف
مظاهر الموكب الاجتماعي كأنها مقولات متباينة . بينما تتحول في ذهننا مختلف
مظاهر وألوان نشاط الانسان الاجتماعي - الاخلاق ، الحقوق ، الاشكال
الاقتصادية ، الخ . . . الى قوى خاصة تبدو كأنها تولد وتكيف هذا النشاط ،
أي كأنها اسبابه الاخيرة .

ومتي ظهرت نظرية العوامل ، فالتقاش يبدأ حتماً حول السؤال التالي :
ما هو العامل الذي يجب اعتباره مسيطراً .

المفهوم العلمي للمجتمع

ان العوامل يتفاعل بعضها مع البعض الآخر : كل منها يؤثر في سائر العوامل الاخرى ، وتؤثر هي فيه ، فيكون لدينا شبكة من التأثيرات المتبادلة ، من الافعال وردود الفعل هي على درجة من التعقيد تبث اللوار في ذهن كل من يبني تفسير سير التطور الاجتماعي ، وتجعله يشعر شعوراً لا يقاوم بالحاجة الى خيط موجه يساعده على الخروج من هذه المقاومة . واذا اقتنع بحكم التجربة المرة ، بان وجهة نظر التفاعل المتبادل لا تقوده الا الى اللوار ، فهو يبحث عن وجهة نظر اخرى ، رغبة منه في تبسيط مهمته . ويقسمال عما اذا لم يكن احد العوامل التاريخية - الاجتماعية السبب الاول الاساسي لكل العوامل الاخرى . حتى اذا ما استطاع حل هذه المشكلة بالايجاب اصبحت مهمته غاية في البساطة . ولنفترض مثلاً انه اقتنع بأن جميع العلاقات الاجتماعية ونشوءها وتطورها في كل بلد من البلدان يخضع لشروط سير التطور الفكري في هذا البلد ، ذلك التطور الذي يتوقف بدوره على صفات الطبيعة الانسانية (تلك هي وجهة نظر المثالية) . منذ منذ هذه اللحظة يتيسر عليه ان يفلت من الحلقة المفرغة ، حلقة الفعل المتبادل ، ليبنى نظرية للتطور الاجتماعي تكون على درجة ما من التلاحم والانسجام . ولعله يرى ، لدى متابسته للبحث ، انه قد سار في طريق خيال ، وان تطور البشر

الفكري لا يمكن اعتباره السبب الاول للحركة الاجتماعية في جملتها .
ولكنه سيلاحظ بلا شك ، لدى ادراكه لخطئه ان اقتناعه الموقت بسيطرة
العامل الفكري قد افاده رغم شيء ، اذ لولا هذا الاقتناع لما تجاوز النقطة الميتة ،
نقطة الفعل المتبادل ، ولما تقدم خطوة واحدة في فهم الوقائع الاجتماعية .
ويكون من الاجحاف ان نشجب هذه المحاولات الرامية الى اقامة نظام من
المراتب في عوامل التطور التاريخي - الاجتماعي ، فقد كانت في وقت ما حتمية .
كظهور نظرية العوامل ذاتها . وإن انطونيو لاريو لا الذي حلل هذه النظرية
على نحو اكمل وأفضل من سائر المؤلفين الماديين ، مصيب في قوله :
« إن العوامل التاريخية تمثل شيئاً هو أقل من الحقيقة
بكثير ، ولكنه أكثر من الخطأ المحض بكثير » .

لقد كان لنظرية العوامل قائمتها بالنسبة للعلم .
« ان الدراسة المنفصلة للعوامل التاريخية - الاجتماعية قد
اقتدت ، كما تفيد اية دراسة وتجريدية ، أخرى لا تتطلى الحركة
الظاهرية للاشياء في تحسين ادوات الملاحظة ، كما ساعدتنا على
ان نكتشف ، في نفس الوقائع التي جردت بصورة اصطناعية ،
احجار الارتكاز التي تربطها بالمركب الاجتماعي » .

بالنسبة لكل من يريد احياء اي جزء من ماضي الانسانية ، لا غنى اليوم عن
الامام بالعلوم الاجتماعية المتخصصة ، فهل يمكن للتاريخ ان يتقدم كثيراً بدون
الفيولوجيا (١) ؟ والباحثون في الشؤون الرومانية الضيقو الافق الذين يتبرون

١ - الفيولوجيا : علم الآداب الجميلة وبشكل عام دراسة الحياة الثقافية والفنية يقصد

به . احياناً علم اللغات . - المترجم -

الحقوق الرومانية من إحياء العقل ، لم يقدموا خدمات جمة الى العلم ؟
ولئن كانت نظرية العوامل مشروعة ومفيدة في حينها ، الا انها لا تصمد
اليوم أمام النقد . فهي تجزئ نشاط الانسان الاجتماعي وتحول مظاهر والوان
هذا النشاط الى قوى خاصة تعين في رأيها حركة المجتمع التاريخية . وقد لعبت
هذه النظرية في تاريخ العلوم الاجتماعية دوراً مماثلاً للدور الذي لعبته نظرية
القوى الفيزيائية المتمايزة في العلوم الطبيعية . لقد أدى تقدم هذه العلوم الى نظرية
وحدة هذه القوى ، أي الى النظرية الحديثة للقدرة . كذلك تحتم على تقدم العلوم
الاجتماعية ان يقود الى ابدال نظرية العوامل التي كانت عمرة التحليل الاجتماعي
بمفهوم مركبي شامل للحياة الاجتماعية .

ليس المفهوم التركيبي للحياة الاجتماعية خاصاً بالمادية الديالكتية المعاصرة ،
بل انما نجد عند هينل الذي كان يتوخى ايجاد تفسير علمي لسير التطور
التاريخي - الاجتماعي في جملته ، اي بما فيه جميع مظاهر والوان نشاط الانسان
الاجتماعي ، التي تبدو عوامل متمايزة لمن يفكرون في عالم الجردات . ولكن هينل
« المثالي المطلق » ، يرى ان نشاط الانسان الاجتماعي انما قصره صفات الفكر
الكوني ومد تغطي هذه الصفات ، يعطي تاريخ الانسانية « بذاته » ، كما تعطي
نتائج الأخيرة . لقد كان مفهوم هينل التركيبي غائباً (١) . اما المادية الديالكتية
الحديثة فقد أبدت الغائية نهائياً عن العلوم الاجتماعية .

لقد بينت المادية الديالكتية انه ، اذا كان الناس يصنعون تاريخهم ، فذلك
ليس لاتباع سبيل للتقدم رسم لهم بصورة مسبقة ، وليس لانهم ملزمون بالالتصوع

١ - الغائية او التفكير الغائي téléologie : تفكير مثالي يرى ان لكل ظاهرة
طبيعية او انسانية ، هدفا او غاية . - المترجم -

لقوانين أي تطور مجرد (ميتافيزيائي) ، كما يقول لابرولا . ان البشر يصنعون تاريخهم في سعيهم وراء حاجتهم ، وواجب العلم انه يشرح لنا كيف تؤثر مختلف وسائل تلبية هذه الحاجات على علاقات الناس الاجتماعية وعلى نشاطهم الروحي .

اما وسائل تلبية حاجات الانسان الاجتماعي ، والى حد بعيد هذه الحاجات نفسها تحددها خصائص الادوات التي تساعد الانسان على اخضاع الطبيعة قليلاً أو كثيراً ، أي بتعبير آخر ، حالة قواه المنتجة . ولكل تبدل هام في حالة هذه القوى انعكاساته على علاقات الناس الاجتماعية ، وبالتالي على علاقاتهم الاقتصادية أيضاً . لقد كانت العلاقات الاقتصادية ، في نظر المثاليين من جميع الصنوف والانواع ، تابعة للطبيعة الانسانية ، أما الماديون والديالكتيون فيرون ان هذه العلاقات تابعة لقوى المجتمع المنتجة .

وينجم عن ذلك انه ، اذا ما اعتقد الماديون والديالكتيون ان من حقهم التحدث عن عوامل التطور الاجتماعي لفرض آخر غير انتقاد هذه الاوهام البالية ، وجب عليهم قبل كل شيء ان يذموا الماديين « الاقتصاديين » الى مدى تعرض عاملهم « المسيطر » الى التغيير ؛ والماديون الحديثون لا يعرفون نظاماً اقتصادياً يكون وحده مطابقاً للطبيعة الانسانية ، بينما تكون سائر اشكال التنظيم الاقتصادي الاخرى نتيجة عنف كبير او صغير ألحق بالطبيعة الانسانية ، بل هم يؤكدون ان كل نظام اقتصادي يطابق حالة هذه القوى المنتجة في وقت معين انما يطابق الطبيعة الانسانية ايضاً . وبالعكس ، فان نظاماً اقتصادياً ما يبدأ في مناقضة حاجات هذه الطبيعة نفسها عندما يدخل في تناقض مع حالة القوى المنتجة ، بحيث ان العامل « المسيطر » هو نفسه خاضع « لعامل » آخر . ولكن في هذه الحال ، لا يجوز اعتباره « مسيطراً » .

وإذا كان الأمر على هذا النحو ، فمن الواضح ان ثمة هوة تفصل بين الماديين الديالكتيين وبين من يمكن تسميتهم بحق ، الماديين الاقتصاديين . فالى اي اتجاه ينتمي اولئك الاتباع المزعجون لمعلم مزعج . اولئك الاتباع الذين كانوا يتعرضون منذ أمد قصير لهجوم الذي شنه عليهم السادة كاريف وميخايلوفسكي وكريفنكو وغيرهم من حملة الفهم والمعرفة ، بحماس ان لم يكن بنجاح . كان الاتباع قد تبناوا تماماً ، على ما اعتقد ، وجهة نظر المادية الديالكتية . فلماذا كان السادة كاريف وميخايلوفسكي وكريفنكو وغيرهم من ذوي الفهم والمعرفة ينسبون لهم افكار الماديين الاقتصاديين ، ويتوعدونهم لانهم ، على حد زعم هؤلاء السادة ، كانوا يمزون للعامل الاقتصادي دوراً مبالغاً فيه ؟ نفترض انهم ، اذا ما سلكوا هذا السلوك ، فلان تفيد حجج الماديين الاقتصاديين الطيبي الذكر اسهل من تفيد حجج الماديين الديالكتيين . ولكنه يمكننا ان نفترض ايضاً ان العلماء خصوم « الاتباع » قد اساءوا فهم افكارهم . هذا الافتراض هو اقرب للعقل .

رب معترض يقول : ان « الاتباع » قد سموا انفسهم احياناً « ماديين اقتصاديين » ، وان عبارة « المادية الاقتصادية » قد وردت للمرة الاولى على لسان أحد الاتباع الفرنسيين (١) . أجل ، ولكن لم يحدث ابداً ان علق الاتباع - الفرنسيون أو الروس - على عبارة « المادية الاقتصادية » . الفكرة التي يطلقها عليها الشعيون والذاتيون في روسيا . ويكفي ان نذكر ان السيد ميخايلوفسكي يسمي لوي بلان والسيد جو كوفسكي « ماديين اقتصاديين » أسوة بأنصار المفهوم المادي للتاريخ المعاصرين . ومن المجال دفع بلبلة الافكار الى أبعد من هذا الحد .

١ - اشارة الى بول لافارغ الماركسي الفرنسي الشهير الذي اصدر كتاباً بعنوان

« مادية كارل ماركس الاقتصادية » ، باريس ١٨٤٤ . - المترجم -

موضوع العلم التاريخي

إن المادة الديالكتية^(١)، حين أبدت كل تأكيد تأتي عن العلوم الاجتماعية وفسرت نشاط الانسان الاجتماعي بمحاجاته وبالوسائل والطرق التي يستخدمها في وقت معين لتلبية هذه الحاجات، قد محضت هذه العلوم للمرة الاولى طابع «الدقة»، هذا الطابع الذي كانت علوم الطبيعة تتبجح به أمامها في كثير من الاحيان. ويمكننا القول ان علم المجتمع يصبح هو نفسه علماً طبيعياً. ويقول لابرولا بحق «ان مذهبنا يجعل التاريخ علماً طبيعياً».

وهذا لا يعني مطلقاً ان ميدان البيولوجيا لا يتميز في نظره عن ميدان العلوم الاجتماعية. فلا برولا هو خصم نشيط لـ «الداروينية السياسية والاجتماعية»^(٢) التي «اجتاحت كالوباء عقل عدد من المفكرين وخاصة من خطباء علم الاجتماع».

(١) يستخدم لابرولا عبارة «المادة للتاريخ» التي اقتبسها عن المجلس. - المؤلف -
 (٢) «الداروينية السياسية والاجتماعية»: اكتشف العالم البيولوجي الكبير دارون ان تطور الانواع النباتية والحيوانية ناتج عن تنازع البقاء. وقد عمل فريق من المفكرين الرجبيين على نقل فكرة تنازع البقاء الى ميدان الظواهر الانسانية الاجتماعية. وعرف بدهم باسم «الداروينية السياسية والاجتماعية». وجوهر هذه النظرية الرجعية انها تلقي مسؤولية الحروب والبطالة والفقر على الطبيعة، في حين ان هذه المصائب ترحم الى اسباب تاريخية - اجتماعية. - المترجم -

والتي أصبحت « موضة » فأثرت على لغة رجال السياسة .

لاشك ان الانسان حيوان تربطه صلات القربى بحيوانات اخرى ، وليس البيئة كائناً ممازاً من حيث اصله . إن فيسيولوجيا الكائن الانساني ليست الا حالة خاصة من الفيسيولوجيا العامة . وقبل كل شيء ، فالانسان خاضع خضاعاً تاماً لتأثير البيئة الطبيعية المحيطة به والتي لم تتأثر بعد بنشاطه التحويلي ، وذلك أسوة بسائر الحيوانات . وقد اضطر في نضاله لاجل الوجود الى التكيف مع هذه البيئة . ويرى لابرولا ان الاجناس (العروق) هي نتيجة هذا التلاؤم - المباشر - مع البيئة الطبيعية ، بقدر ما تمتاز هذه العروق بعلامات مادية فارقة - العرق الابيض والاسود والاضفر - وهي لا تؤلف تشكيلات تاريخية - اجتماعية ثانية ، اي انما وشعوباً . إن التريزة الاجتماعية الابتدائية والبنور الاولى للاصطفاء الجنسي ناتجة هي ايضاً عن التكيف مع البيئة الطبيعية خلال النضال من اجل الوجود .

ولكنه لايسعنا الاعتماد الا على التخمينات فيما يتعلق بـ « الانسان البدائي » فالبشر الذين يسكنون الارض حالياً والذين لاحظهم في الماضي باحثون جديرون بالثقة هم بعيدون جداً عن الوقت الذي توقفت فيه الحياة الحيوانية بمعنى الكلمة الاصيلي ، بالنسبة الى الانسان . هكذا ، قبائل ايروكوا في اميركا الشمالية - ونظام الامومة (١) الذي تعيش فيه هذه القبائل والذي درسه ووصفه مورغان (٢)

(١) نظام الامومة : نظام تمارس فيه النبا. سلطة سيطرة في العائلة والقبيلة . وهو مرحلة قديمة من مراحل التطور الاجتماعي . - المترجم - .

(٢) مورغان (١٨٠٨ - ١٨٨١) : عالم اتنوغرافي اميركي ، احد رواد التاريخ الطبي للمجتمعات البدائية . وقد وضع انجلس كتابه « اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة » مستنداً على تحليل مؤلفات مورغان تحليلاً انتقادياً . - المترجم - .

بلغت نسبياً مرحلة متقدمة جداً في التطور الاجتماعي والاورستاليون^(١) الحاليون انفسهم لا يملكون لغة وحسب (واللغة هي الشرط والاداة والسبب والنتيجة في كل حياة اجتماعية) ولا يعرفون استخدام النار وحسب ، بل هم يعيشون ايضاً في مجتمعات ، في ظل نظام معين ، ولهم اعرافهم ومؤسستهم ، والقبيلة الاورستالية لها ارضها واساليبها في الصيد ووسائلها في الدفاع والهجوم ، وهي تستعمل اوعية لحفظ المؤن ، وتمارس بعض اعمال تزيين الجسد ، وبكلمة مقتضبة ، ان الاورستالي ، رغم تأخره ، يعيش في بيئة اصطناعية ، هي بيئة ابتدائية بلا شك ، يتكيف معها منذ طفولته . وهذه البيئة الاصطناعية - البيئة الاجتماعية - هي الشرط الضروري لحصول تقدم جديد . وإن درجة تقدمها هي التي تعطي قياس درجة همجية او بربرية القبيلة

إن هذا التشكيل الاجتماعي الاول يطابق ما يسمى بعهدهما قبل تاريخ الانسانية . اما بداية الحياة التاريخية نفسها فتقرض بيئة اصطناعية اكثر تقدماً وسلطة اكبر بكثير يمارسها الانسان على الطبيعة . والعلاقات الشديدة التعقيد في قلب المجتمعات التي تدخل في طريق التقدم التاريخي لا تخضع مطلقاً لشروط تأثير البيئة الطبيعية المباشرة . انها تقرض اختراع بعض ادوات العمل وتأهيل عدد من الانواع الحيوانية واستخراج بعض المعادن . . . ان وسائل الانتاج واساليبه هذه قد بدلت على صور شديدة الاختلاف تبعاً للظروف ؛ فهي قد تقدمت تارة ، وتوقفت عن التقدم تارة اخرى ، بل انها تراجعت في بعض الاحيان ؛ ولكن هذه التبدلات لم ترجع البشر في يوم ما الى حياة حيوانية صرفة اي الى حياة خاضعة لتأثير البيئة الطبيعية بصورة مباشرة .

(١) يقصد بالاورستاليين في علم المجتمعات البلائية سكان اورستاليا الاصليين - المترجم -

« أن الهدف الأول والرئيسي للعلم التاريخي هو بالتالي تحديد وتحري الأرض الاصطناعية وأصلها وتركيبها وتبدلاتها وتحولاتها. والقول أن ذلك كله ليس إلا جزءاً من الطبيعة وامتداداً لها هو قول لم يبق له أي معنى ، بسبب طابعه المقرطفي التجريدي والشمول. »

ويشجب لابيولا ، فضلاً عن « الداروينية السياسية والاجتماعية » المحاولات التي يقوم بها بعض « الهواة الظرفاء » للاحاق المفهوم المادي للتاريخ بنظرية التطور العامة التي لم تعد ، بالنسبة الى الكثيرين ، الا تورية ميتافيزيائية ، حسب تعبير لابيولا ، وهو تعبير قاس ولكنه شديد . كذلك يسخر ايضاً من التسرع الساذج الذي يبديه « الهواة الظرفاء » في وضع المفهوم المادي للتاريخ في كنف فلسفة اوغست كونت او سينسر^(١) . فذلك على حد تعبيره ، يعني السعي لظهار آله اعدائنا بمظهر الخلفاء » وهذه الملاحظة بصدد الهواة موجهة بلا شك الى اريكو فرمي الذي ألف كتاباً سطحياً عنوانه « سينسر ، داروين وماركس » ، ونقل الى الفرنسية تحت عنوان « الاشتراكية والعلم الوضعي »

(١) اوغست كونت (١٧٩٨ - ١٨٥٧) : فيلسوف برجوازي فرنسي . مؤسس المذهب الوضعي وام مالى هلمة فلسفة قولها ان العلم لا يهتم بمعرفة وكنه الاشياء وعلاقات السببية ، بل يقتصر على دراسة الظواهر واكتشاف القوانين . وبالرغم من مظهرها العلمى هو الحديث ، وادعائها بانها ضد جميع انواع الميتافيزياء المثالية المادية (١) ، فانها فلسفة تحدد من قيمة العلم وتخدم اغراض المثالية . - المترجم -

سينسر (١٨٢٠ - ١٩٠٣) : فيلسوف انكليزي صاحب نظرية التطور البرجوازية ، وهي نظرية ميتافيزيائية تجهل التناقض والصراع ، كما تجهل الانقلابات وامكانية حدوث تردت الرجعية . - المترجم -

الارقتصاد . السيكولوجيا الاجتماعية .

هكذا ، إن البشر يصنعون تاريخهم بسميهم لتلبية حاجاتهم . وهذه الحاجات تولد في الاصل من الطبيعة ، ولكنها فيما بعد تتحول كثيراً في كيتها ونوعيتها ، وذلك بسبب خصائص البيئة الاصطناعية وتكيف القوى المنتجة التي يملكها البشر سائر علاقاتهم الاجتماعية . وتحدد حالة القوى المنتجة ، قبل كل شيء ، العلاقات التي تنشأ بين الناس في عملية الانتاج الاجتماعية ، اي بتعبير آخر العلاقات الاقتصادية . وهذه العلاقات تولد بشكل طبيعي المصالح التي نجد تفسيراً عنها في الحقوق . يقول لابرولا :

إن كل قاعدة حقوقية كانت ولا تزال الدفاع القضائي عن

مصصلحة معينة . .

إن تطور القوى المنتجة يولد انقسام المجتمع الى طبقات ذات مصالح مختلفة بل ومتعارضة تماماً في كثير من النواحي — ومن النواحي الاساسية — وهذا التمازض بين المصالح يثير النزاعات والنضال بين الطبقات الاجتماعية . ويقود هذا النضال الى ابدال التنظيم العشوائي بالدولة ، التي تؤدي مهمة حماية المصالح السائدة . وعلى اساس العلاقات الاجتماعية التي يكفها مستوى القوى المنتجة ، تشكلون الاخلاق العامة أي الاخلاق التي يسير عليها الناس في حياتهم اليومية .

هكذا ، فالحقوق والنظام السياسي والاخلاق لدى شعب ما تتكيف ،
بصورة مباشرة ودوناً وسيط ، مع العلاقات الاقتصادية الخاصة بهذا الشعب .
وهذه العلاقات نفسها تتكيف ، ولكن بصورة غير مباشرة وعن طريق الوسائط ،
كل نتاج الفكر الخلاق والخيال المبدع الفن ، العلم ، الخ ...
ولتفهم تاريخ العلوم او الفنون في بلد معين ، لا تكفي معرفة اقتصاد هذا
البلد . بل يجب الانتقال من الاقتصاد الى السكولوجيا الاجتماعية ، لانه ، بدون
دراسة هذه السكولوجيا دراسة بقضة وبدون تفهمها ، يكون من المحال اعطاء
تفسير مادي لتاريخ الايديولوجيات ، وهذا لا يعني بالطبع ان هناك نفساً جماعية
او روحاً قومية جماعية تتطور بموجب قوانينها الخاصة وتتجلى في الحياة
الاجتماعية . . . ان هذا الرأي تصوف محض ، ، على حد قول لابرولا . فالقصد
بالسكولوجيا الاجتماعية ، عند الماديين ، ليس سوى العواطف والافكار التي
تسيطر ، في وقت ما في طبقة اجتماعية في بلد معين . وهذه العواطف والافكار
تفبع من العلاقات الاجتماعية . فلا برولا مقتنع قناعة راسخة بان اشكال وعي
الناس ليست هي التي تحدد اشكال حياتهم الاجتماعية . ولكن متى انبثقت اشكال
الوعي الانساني من الحياة الاجتماعية ، فانها تصبح جزءاً لا يتجزأ من التاريخ -
ولا يمكن لعلوم التاريخ ان تقتصر على تشريح المجتمع ، بل يجب ان تشمل ، بمجموع
الوقائع التي يكفها الاقتصاد الاجتماعي بصورة مباشرة او غير مباشرة ، بما فيها
نشاط الخيال . وليس من واقعة تاريخية الا وتجد اصلها في اقتصاد المجتمع ، ولكن
ليس ايضاً من واقعة تاريخية الا وتسبقها وتراقبها وتعقبها حالة من حالات الشعور
والوعي . من هنا تنجم الاهمية الهائلة التي للسكولوجيا الاجتماعية . فاذا كان
اخذها في حسابنا واجباً حتى في تاريخ الحقوق والمؤسسات السياسية ، فبدونها
لا يمكننا ان نخطو خطوة واحدة في تاريخ الابد والفن والفلسفة . . .

عندما نقول . على سبيل المثال ، ان مؤلفاً ما يترجم بصدق وامانة عن روح عصر النهضة ؛ هذا يعني انه يطابق تماماً الروح السائدة في الطبقات التي كانت تبين نمط الحياة الاجتماعية وما دامت العلاقات الاجتماعية بدون تغيير ، فالسيكولوجيا الاجتماعية لا تتغير هي ايضاً . والناس يألقون ما يوجد من معتقدات وأفكار وطرق تفكير ووسائل تلبية حاجاتهم البدئية ، ولكن ، اذا أحدث نمو القوى المنتجة تبدلات ذات شأن ما في البنيان الاقتصادي المجتمع ، وبالتالي في علاقات الطبقات الاجتماعية ، فان سيكولوجيا هذه الطبقات تتبدل بدورها وتتبدل معها روح العصر ، و«طبيعة الامة» . وهذا التغيير يتجلى في ظهور المعتقدات الدينية الجديدة او الافكار الفلسفية الجديدة او الاتجاهات الفنية والحاجات البدئية الجديدة .

ويلاحظ لا يريو لا ان بقاء افكار واتجاهات خلفها الاجداد ولا تستمر الا بحكم التقاليد يلعب دوراً بالغاً في الايديولوجيات ، حيث نشاهد من جهة اخرى تأثير الطبيعة . ان البيئة الاصطناعية ، كما رأينا ، تعدل بشكل رائع تأثير الطبيعة على الانسان الاجتماعي . فيبدو هذا التأثير غير مباشر بيد ان كان مباشراً . ولكنه يظل موجوداً . وفي مزاج كل شعب من الشعوب تبقى بعض الخصائص الناتجة عن تأثير البيئة الطبيعية ، وهي تتحول الى حد ما ، ولكنها لا تزول تماماً ، فكيفها مع البيئة الاجتماعية . وهذه الخصائص في مزاج شعب ما تشكل ما يسمى بالعرق . والعرق يؤثر تأثيراً لا جدال فيه على تاريخ الايديولوجيات - كالفن مثلاً - مما يزيد في صعوبة تفسيرها تفسيراً علمياً .

نشوء الدولة - مفهوم العرق

لقد عرضنا بصورة مفصلة وصحيحة ، على ما نرجو ، افكار لابيولا عن ارتباط الظواهر الاجتماعية بالبنيان الاقتصادي الذي يتوقف بدوره على حالة القوى المتسجة . ونحن متفقون معه تماماً في معظم الاحيان ، الا ان افكاره حول بعض النقاط توحى لنا ببعض الشك ، ونحن نرغب في ابداء بعض الملاحظات بشأنها .

نشير قبل كل شيء الى الامر التالي : يرى لابيولا ان الدولة هي التنظيم الذي يمكن طبقة اجتماعية من ممارسة سيطرتها على طبقة أو عدة طبقات اخرى . هذا صحيح . ولكن هل بإمكاننا القول ان هذا الكلام يتضمن الحقيقة كاملة غير منقوصة ؟ في دول كالصين ومصر القديمة ، حيث كانت الحياة الحضارية مستحيلة بدون الاشغال الواسعة البالغة غاية التعقيد التي نفذت مجرى الأنهار الكبرى وفيضاناتها وامنت الري ، يمكننا ان نقرر نشوء الدولة ، الى حد بعيد ، بالتأثير المباشر لمتطلبات عمية الانتاج الاجتماعية . اجل ، لقد كان التفاوت موجوداً منذ عصور ما قبل التاريخ ، والى حد ما ، في قلب القبائل التي كانت جزءاً من الدولة - وكثيراً ما كانت هذه القبائل تختلف من حيث اصلها العرقي ، وفيما بين هذه القبائل على السواء . ولكن الطبقات السائدة التي نجدتها في تاريخ هذه

البلدان قد احتلت مركزها الاجتماعي البالغ درجة مامن الرفعة ، بفضل التنظيم السياسي الذي تولد بالضبط من مقتضيات عملية الانتاج الاجتماعية . ولا شك ان سيطرة طائفة الكهنة في مصر كان مردها الاهمية الخطيرة التي كانت تعود الى مملوكاتها العلية رغم طابعها الابتدائي ، بالنسبة لتنظيم الزراعة المصرية بمجموعه (١) وفي الغرب ، بما فيه طبعا اليونان ، لا ملاحظ ان المتطلبات المباشرة لعملية الانتاج الاجتماعية (التي لم تكن تفترض في هذه البلدان تعظيما اجتماعيا فائق الاتساع) قد اثرت على نشوء الدولة : ولكن هنا ايضا ينبغي تفسير هذا النشوء ، الى حد بعيد ، بضرورة احداث تقسيم اجتماعي في العمل ، تلك الضرورة الناجمة عن نمو القوى المنتجة في المجتمع . وبالطبع ، فان هذا الطرف لم يمنع الدولة من ان تكون في الوقت نفسه تعظيما يضمن سيطرة اقلية متميزة على اغلبية مستعبدة في قليل او كثير (٢) . ولكن ينبغي الا تنقل هذه الحقيقة ابدأ ، اذا اردنا اجتناب المفاهيم الخاطئة والضيقة عن دور الدولة التاريخي .

ولنتقل الآن الى افكار لابرول عن تطور الايدولوجيات التاريخي . لقد رأيناه يقول ان هذا التطور يزداد تعقيداً بسبب تأثير خصائص العرق ، وبشكل اعم ، بسبب تأثير البيئة الطبيعية على البشر . ويؤسفنا جداً ان المؤلف لم يرد من

١ — يقول احد ملوك الكلدان : « لقد درست اسرار الانهار في سبيل خير البشر ... وجلبت مياهها الى الصحراء ، واملأت بها الحفر الجافة . . . ورويت الوديان القاحلة ، ففتحها الحصب والوقرة ، وجلستها بيت السعادة » . ان هذا الكلام يرسم دور الدولة الشرقية في تنظيم عملية الانتاج الاجتماعية بصورة امينة ، وان كان ذلك بصيغة الاطناب والمغالاة — المؤلف —

٢ — كما لا يمنعها من تكون احيانا نتيجة استيلاء شعب على آخر . ان دور العنف كبير جداً ، اذ ان تبديل بعض المؤسسات باخرى . ولكن العنف لا يفرض امكانية هذا التبديل ولا نتائج الاجتماعية . — المؤلف —

المفيد ان يستد رأيه ويوضحه بالامثلة . ولو فعل ، ليس علينا فحمة . ومما كان الامر ، فلا يمكننا صراحة قبول هذا الرأي بالشكل الذي ورد فيه .

ان الهنود الحمر الاميركيين لا ينتمون طبعاً الى العرق الذي تنتمي اليه القبائل التي سكنت ، في عصور ما قبل التاريخ ، الارخبيل الاغريقي او شواطئ البلطيق . وفي كل من هذه المناطق ، تأثر الانسان البدائي بيئات طبيعية مختلفة تماماً . وقد يتوقع المرء ان يري تنوع التأثيرات هذا في الاعمال الفنية الابتدائية التي انتجها سكان هذه المناطق البدائيون . ولكن الامر خلاف ذلك ، ففي سائر اجزاء المعمورة على اختلافها ، نجد ان مراحل واحدة في تطور الانسان البدائي تطابقها مراحل واحدة في تطور الفن . يوجد فن العصر الحجري ، وفن عصر الحديد ، ولا يوجد فن للعرق الابيض والاصفر ، الخ... وان حالة القوى المنتجة تظهر حتى في التفاصيل مثلاً ، لان شاهد باديء الامر في الخزف الا الخط المستقيم او الخط المتكسر : المربعات والصلبان والخطوط المعوجة الخ... ان الفن البدائي يقتبس هذا النوع من التزيين عن حرف هي اكثر بدائية منه : النسيج والتجديل . وفي عصر البرونز ، مع شغل المعادن التي تتخذ جميع الاشكال الهندسية ، يظهر الخط المنحني في التزيين ، و أخيراً يؤدي تأهيل الحيوانات الى تصويرها وأولاً تصوير الحصان (انظر بهذا الخصوص مقدمة كتاب محاولة في تاريخ الفن مؤلفه فيلهلم لوبكه ، ترجمة كولر ، باريس - روان ١٨٨٦ - ١٨٨٧) .

في تصوير الانسان ، صحيح ان الخصائص العرقية تؤثر حتماً على . والمثل الاعلى للجمال ، عند الفنان البدائي . فن المعلوم ان كل عرق ، وخاصة في المراحل الاولى للتقدم الاجتماعي ، يعتبر نفسه اجل عرق ، وهو فخور قبل كل شيء بما يميزه عن غيره من العروق . (انظر دارون : اصل الانسان ، لندن ، ١٨٨٣ ص ٥٨٢ - ٥٨٥ . ترجمة بارية ، باريس ١٨٨١) . ولكن أولاً ، ان هنته

الخصائص في جمالية كل عرق - بقدر ما هي ثابتة - لا نستطيع ، بحكم تأثيرها وحده ، ان تميز سير تطور الفن ؛ وهي ثانياً ، لا تبقى إلا خلال مدة من الزمن ، أي في شروط معينة . وعندما تضطر قبيلة من القبائل الى الاعتراف بتفوق قبيلة أخرى أكثر تقدماً منها ، فهي تتخلى عن اعتزازها العرقي وتشرع بتقليد الاذواق الغريبة التي كانت تعتبرها حتى ذلك الحين مضحكة بل مخزية أو شائنة . ان الانسان البدائي في هذا المضمار كالقلاح في المجتمع المتمدن ؛ فالقلاح يهزأ باديء الامر من طبائع سكان المدينة ولباسهم ، ولكنه فيما بعد ، عندما ترسم ثم تقبت سيطرة المدينة على الريف ، يسعى الى تقليدهم بقدر ما يستطيع .

وإذا ما انتقلنا الى الشعوب التاريخية ، نلاحظ قبل كل شيء انه لا يمكن لايحوز ان تطبق عليها كلمة عرق - فنحن لانعرف شعباً واحداً منها يمكن اعتباره عرقاً صافياً ، وكل منها نتاج خليط عميق وتمازج طويل بين عناصر عرقية متباينة . فكيف السبيل بعد ذلك الى تجديد أثر العرق على التاريخ الايديولوجي لهذا الشعب أو ذاك ؟ !

قد يبدو للوهلة الاولى ان لاشيء أكثر بساطة وأشد صواباً من فكرة اثر تمارسه البيئة الطبيعية على مزاج شعب من الشعوب ، وبالتالي على تطوره الفكري والبدني ، ولكنه يكفي الايروولا ان يتذكر تاريخ بلاده ليذكر خطأ هذه الفكرة . ان ايطالي اليوم يعيشون في نفس البيئة الطبيعية الذي عاش فيها الرومان القدماء ، ومع ذلك فالفرق كبير بين « مزاج » الذين هزمهم منليك (1) ومزاج قائمي قرطاجه الأشداء ؛ فاذا ما قررنا مثلاً تفسير تاريخ الفن الايطالي بمزاج الايطاليين ، فسرعان ما سنضطر الى التساؤل فلقين عن الاسباب التي جعلت المزاج يتبدل بموره على هذا النحو العميق في مختلف العهود ومختلف أجزاء شبه الجزيرة الايطالية .

١ - مينيليك امبراطور الحبشة هزم الغزاة المستعمرين الايطاليين سنة ١٨٩٦ وارغمهم على الاعتراف باستقلال بلاده . - المترجم -

مفهوم العرق ومزاج الشعب

إن مؤلف كتاب «دراسات عن الدور العرقي في الأدب الروسي» (١) يقول في ملاحظة له عن الجزء الأول من «مبادئ الاقتصاد السياسي» لـ ج. س. ميل :

« لن نقول أنه ليس للعرق أي شأن على الإطلاق . فقدم العلوم الطبيعية والتاريخية لم يبلغ بعد درجة كافية من الدقة في التحليل يمكننا التأكيد في معظم الحالات : أن هذا العنصر مفقود تماماً هنا . فمن يعلم ؟ ربما احتوت هذه الريشة الفولاذية على جزء صغير من معدن البلاتين . لا يمكننا أن نتق ذلك بثقة مطلقة . إن الشيء الوحيد الذي نعرفه هو أن التحليل الكيميائي يكشف في هذه الريشة عن وجود عدد كبير جداً من الجزيئات التي ليست من معدن البلاتين حتماً ، مما يجعل أن كمية البلاتين التي قد تكون داخلية في تركيبها هي عددة الشان . وحتى في حال وجودها لا يمكن عملياً أخذها في الحسبان . عملياً ، اعتبروا هذه الريشة كريشة فولاذية عادية . كذلك في التطبيق العملي ، لا ينتهوا إلى عرق البشر . اعتبروهم بشراً وحسب .»

١ - المقصود : الدكتراطي الروسي الكبير تشرنيشفسكي . راجع هذا الكتاب ص ٥٦ .

وإذا كان شعب من الشعوب يعيش في حالة معينة. وليس في غيرها ، فقد يكون العرقه بعض الأثر في ذلك ، لا يمكننا ان نتفي الامر بثقة مطلقة . إلا التبجيل التاريخي لم يبلغ حتى الآن دقة تامة ، رياضية ؛ وبعد هذا التبجيل ، تبقى فضلة صغيرة جداً تستلزم وسائل أكثر دقة ، وسائل ليست متوفرة في حالة العلم الراهنة . ولكن هذه البقية عدده الشان بإن أثر الظروف المستقلة عن الصفات العرقية الطبيعية في تكوين الحالة الراهنة لكل شعب كبير لدرجة لا يبقى معاملة الصفات الطبيعية الخاصة ، في حال وجودها ، إلا مكان صغير جداً مكان طفيف مجهري .

لقد تذكرنا هذه السطور عندما قرأنا أقوال لبريولا عن تأثير العرق في تاريخ تطور الانسانية الروحي . لقد تناول مؤلف « الدراسات عن الدور العرقي » تأثير العرق من الناحية العملية بشكل خاص ، ولكن ينبغي على جميع من يهتمون بحوث نظرية صرفه ان يتذكروا دائماً هذه الأقوال . فالقوم الاجتماعية مستحضر كسباً كبيراً اذا ما تخيلنا عن عاداتنا السيئة في رد كل ما يبدو لنا غير مفهوم في التاريخ الروحي لشعب ما الى العرق . ربما لعبت الخصائص العرقية دوراً ما في الأمر . ولكن هذا الدور الافتراضي كان بالتأكيد هزياً لدرجة يجدر معها ، لصالح أبحاثنا ، أن نعتبره معدوماً ، وان نرى في الخصائص التي نلاحظها في تطور هذا الشعب او ذاك نتائج الشروط التاريخية الخاصة بهذا التطور ، وليس نتاج أثر العرق . نفي عن البيان اننا سوف نكون ، في أحوال عديدة ، عاجزين عن تعيين الشروط التي ولدت الخصائص التي تهمننا . ولكن ما ليس بمتناول البحث العلمي اليوم قد يصبح بمتناوله غداً . والاستنتاج بخصائص العرق يعني توقيف البحث بالضبط حيثما يجب استئنافه . ما هو حبيب اختلاف

تاريخ الشعر الفرنسي عن تاريخ الشعر في ألمانيا ؟ الجواب في منتهى البساطة :
فمزاج الشعب الفرنسي لم يسمح بظهور أمثال ليستغ وشيار وغوته . شكراً على
هذا الشرح الذي أوضح كل شيء !

سوف يقول لا بريولا انه أبعد ما يمكن ان يكون المرء عن مثل هذه
التفسيرات التي لا تفسر شيئاً ، وسيكون على حق في قوله . فهو بشكل عام يدرك
تماماً وهما وهزالها ، ويعلم جيداً كيف ينبغي حل مسائل من هذا النوع ، غير
ان اعترافه بأن خصائص المرق تزيد في تعقيد تطور الشعب الروحي يعرض
قراءه الى الضلال ويدل على استعداده للتساهل حيال طريقة التفكير القديمة ،
ولو في بعض النقاط الثانية ، الأمر الذي يلحق الضرر بالعلوم الاجتماعية . ونحن
على وجه الدقة ، انما نقصد من ملاحظتنا الاعتراض على هذا السؤال .

ونحن على حق عند ما نصف المفهوم الذي تنتقده ، مفهوم المرق في تاريخ
الايديولوجيات بأنه قديم . فهذا المفهوم ليس الا شكلاً من أشكال النظرية التي
كانت واسعة الانتشار في القرن الماضي ، تلك النظرية التي تملئ سير التاريخ
بخصائص الطبيعة الانسانية . أما المفهوم المادي للتاريخ فلا يتفق بتاتا مع هذه
النظرية . ان عطف التفكير الجديد يرى ان طبيعة الانسان الاجتماعي تتبدل مع
العلاقات الاجتماعية . وبالتالي ، فالخصائص العامة للطبيعة الانسانية ليس بإمكانها
تفسير التاريخ . ان لا بريولا ، الذي يتاصر بتقاعة وجرارة المفهوم المادي للتاريخ ،
يقبل مع ذلك بان المفهوم القديم صحيح هو أيضاً الى درجة ما . ولكن الا
يقولون بحق : « من يقول يجب ان يقول أيضاً ! » . ولا بريولا الذي قبل
بصحة المفهوم القديم في حالة واحدة . اضطر الى قبول صحته في بضع حالات
أخرى . فهل من حاجة للقول بان جمع هذين المفهومين المتعارضين كان لا بد من
ان ينتهت الى تلاحم نظريته ؟

الخطأ والجبريل

ان تنظيم كل مجتمع تحدده حالة القوى المنتجة . واذا تبدلت هذه الحالة ، فالتنظيم الاجتماعي يتبدل حتما عاجلا او آجلا . فهو اذن في توازن متقلقل غير ثابت حتما تتطور القوى المنتجة . ويلاحظ لابرولا بحق ان هذا التقلقل نفسه والحركات الاجتماعية ونضال الطبقات الاجتماعية الناجمة عنه هي التي تحمي البشر من الركود الفكري ؛ ويقول ان التناقض هو السبب الرئيسي للتقدم ، مردداً بذلك فكرة علم اقتصادي الماني معروف (١) ، ولكنه سرعان ما يبدي تحفظاً . فمن يتخيل ان البشر يملكون دائماً وفي جميع الاحوال وعياً واضحاً لوضعهم الخاص ويرون بجلاء المهات الاجتماعية التي يطرحها عليهم هذا الوضع ، يرتكب ، على حد قول لابرولا ، خطأ فادحاً . « هذا التصور يعني افتراض ما هو بعيد عن العقول ، بل ما هو غير موجود » .

اتنا نرجو القاريء ان ينظر باقتباه الى هذا التحفظ . اليكم كيف يعرض لابرولا فكرته :

« ان الاشكال الحقوقية والاعمال السياسية ومحاولات التنظيم الاجتماعي كانت ولا تزال تارة صحيحة وتارة خاطئة . أي غير مناسبة وغير صالحة . فالتاريخ مليء بالاشطاء . ونحن نعلم ان كل شيء ضرورياً نظراً للفهم النسبي الذي كان يقع عليهم حل صعوبات

١ - المقصود كارول ماركس . راجع هذا الكتاب ص ٥٦ - المترجم

او مسألة ما الخ .. ، واثن كان لكل شيء سببه الكافي ، الا ان كل شيء لم يكن مقولاً بالمعنى الذي يعلقه المتفائلون على هذه الكلمة . وعلى مر الأيام ، ان الأسباب التي قررت سائر التبدلات الفجائية ، أي الشروط الاقتصادية المعدلة ، قد انتهت وهي تنهي الى الاشكال الحقوقية الموافقة والانظمة السياسية الملائمة واساليب التكيف الاجتماعي البالغة حداً تامن الكمال ، وذلك بطرق قد تكون احياناً ملتوية . ولكن من الخطأ الاعتقاد ان الحكمة الفريزة في الحيوان العاقل قد تجلت او هي تجلى ، بصورة مباشرة وبسيطة ، في الفهم التام والواضح لسائر الحالات ، وانه لا يبقى لنا إلا ان نسلك الطريق الاستنتاجي من الحالة الاقتصادية الى سائر الامور الاخرى . ان الجهل الذي يمكن تفسيره ايضاً هو سبب نو شأن للسبيل الذي سلكه التاريخ ؛ ونضيف الى الجهل الطابع البهيمي الذي لا يزول تماماً في يوم من الايام ، وسائر الاهواء واعمال الظلم ومختلف اشكال الفساد ، التي كانت ولا تزال التاج الضروري للمجتمع يفترض تنظيمه وجود سيطرة الانسان على الانسان ، كما يفترض وجود الكذب والرياء والخبث والوقاحة التي لا تفصل عن هذه السيطرة . ويمكننا ، دون الوقوع في الإحلام الخيالية . . ، ان نتنبأ ، كما تنبؤوا فعلاً ، بقيام مجتمع ينشأ من المجتمع الحالي ومن متناقضاته ليصل ، بفضل القوانين الثابتة للصيرورة التاريخية الى اجتماع لاثوبه التناقضات الطبقيه . ولكن هذا من حيز المستقبل وليس من حيز الحاضر او الماضي . ونجزم عنه ان الاتاج المنظم سوف يستبعد الصدفة من الحياة . تلك الصدفة التي تظهر حتى الآن في التاريخ كسبب متعدد

الأشكال للحوادث العارضة ، (انظر كتاب لابريولا من ١٨٣-١٨٥)

هذا الكلام يتضمن حقائق كثيرة . ولكن الحقيقة التي تختلط فيه اختلاطاً قريباً بالخطأ اتخذ هنا شكلاً تناقض غريب مؤسف .

أجل ، أنت لابريولا مصيب في قوله أن البشر لا يدركون وإنما بوضوح

وضعهم الاجتماعي والمهات الاجتماعية التي تنبع منه . ولكنه عندما ينطلق من هذه

الحقيقة ليقرر أن الجهل والخرافة سبب تاريخي لظهور عدد من العادات ومن

اشكال الحياة الاجتماعية ، فهو يعود بصورة لا شعورية الى وجهة نظر رجال

الموسوعة في القرن الثامن عشر . وقبل ان تشير الى الجهل كأحد الأسباب

الرئيسية التي تطلد كونه التاريخ قد اتبع هذا السيل ولم يتبع سيلاً آخر ،

كان علينا ان نحدد المعنى الذي يجب ان نعطيه لهذه الكلمة ، فهذه الكلمة ليست

مفهومة بحد ذاتها وليست على ما ينبغي من الوضوح والبساطة . انظروا الى فرائضنا

في القرن الثامن عشر . ان جميع من يفكرون بين ممثلي الطبقة الثالثة يتطلعون

بحرارة الى الحرية والمساواة . لذلك ، فهم يطالبون بالقضاء على عدد كبير من المؤسسات

الاجتماعية البالية . ولكن ذلك يعني اقتصار الرأسمالية التي لا يمكن اعتبارها

حكم الحرية والمساواة (ونحن اليوم نذكر هذه الحقيقة جيداً) . فوسعنا ان

نقول ان فلاسفة القرن الماضي لم يبلغوا الهدف النبيل الجريء الذي عملوا لاجله ،

كما فشلوا في تجديد الوسائل الكفيلة بتحقيقه . ويمكننا ان اتهمهم بالجهل ، كما

فعل كثير من الاشتراكيين الخياليين . إن لابريولا نفسه يستغرب التناقض

الذي كان قائماً بين الانحياز الاقتصادي الواقعي في فرنسا آنذاك وبين المثل الاعلى

لمفكرها ، فيصيح : « يا له مشهد الغريب ، بالتناقض المدهش ! » . ولكن اين وجه

الغرابية ؟ واين « جهل » رجال الموسوعة الفرنسيين ؟ هل في انهم كانوا يفهمون

وسائل تحقيق الرفاه العام ، خلافاً لما تفهمها نحن ؟ ولكن هل كانت هذه الوسائل

في تناول الناس أكلا ، لأن الحركة التاريخية ، أو بالأصح ، تطور القوى المنتجة لم يكن قد أوجدها بعد . اقرؤوا كتاب مابلي وشكوك معروضة على الفلاسفة الاقتصاديين ، أو كتاب موريلي «سنة الطبيعة» (١) سوف ترون ان هذين الكاتبين اللذين كانا على خلاف مع الاغلبية الساحقة من رجال الموسوعة حول شروط رفاه الانسانية والذين كانا يحملان بالناء الملكية الخاصة ، كانا في تناقض واضح صارخ مع حاجات عصرهم الاساسية الملحة والشاملة . هذا من جهة ، ولما كانا ندر كان ذلك . ولو بشكل غامض ، فقد كانا من جهة ثانية يعتبران احلاهما غير قابلة للتحقيق بتاتا . اذن لتطرح السؤال من جديد . اين يكن جهل رجال الموسوعة ؟ هل في كونهم ، مع وعيهم لحاجات عصرهم الاجتماعية ومع تحديد الصحيح لوسائل تلبيتها (الناء الامتيازات القديعة الخ .) ، يعلقون على هذه الرسائل اهمية مفرطة بزعمهم انها كافية بتحقيق السعادة العامة ؟ ليس في هذا الجهل ما يدعو الى الاستغراب ، بل علينا الاعتراف بفأثته من الناحية العملية . فيقدر ما كان رجال الموسوعة يؤمنون بالمدى الصام الشامل للاصلاحات التي ينادون بها ، كان يتحتم عليهم ان يضاعفوا الجهد لتحقيقها .

كذلك ، فقد برهن رجال الموسوعة عن جهل أكيد في عدم ادراكهم للصلة التي تربط بين أفكارهم ومطامعهم وبين الوضع الاقتصادي في فرنسا آنذاك . بل ان وجود هذه الصلة لم يكن ليخطر بالهم ، لقد كانوا يعتبرون انفسهم المبشرين بالحقيقة المطلقة . ونحن نعلم اليوم ان الحقيقة المطلقة غير موجودة ، وان كل شيء نسبي وتابع لظروف المكان والزمان ، ولذلك يجب ان نكون شديدي الاحترام لدى التحدث عن « جهل » مختلف اليهود التاريخية . ان هذا الجهل الذي يظهر في الحركات والمطامح والمثل العليا الخاصة بهذه اليهود هو ايضا نسبي .

١ - مابلي وموريلي : من مثلي الشيوعية الخيالية في القرن الثامن . - المترجم -

الحقوق والدين

كيف تظهر القواعد الحقوقية ؟ يمكن القول ان كلا منها تنجم عن عمو او تعديل قاعدة قديمة او عرف قديم ، ولماذا تزول القوى والاعراف القديمة ؟ لانها لم تعد توافق الشروط الجديدة ، اي العلاقات الجديدة في الواقع بين الناس في عملية الانتاج الاجتماعية. لقد زالت المشاعية الابتدائية على اثر تطور القوى المنتجة ولكن هذه القوى لا تتطور الا تدريجياً . ولهذا السبب ، فالملاقات الجديدة التي تقوم في الواقع بين الناس في عملية الانتاج الاجتماعية لا تتطور الا تدريجياً كما أن القواعد والاعراف القديمة لا تظهر كمقبات الا بصورة تدريجية . وبالتالي فإن ضرورة اعطاء العلاقات الواقعية الجديدة (العلاقات الاقتصادية) تسييراً حقيقياً مطابقاً لكل التطابق لا تظهر هي ايضاً الا بصورة تدريجية . وإن الحكمة الفريزية عند الحيوان العاقل تتبع عادة هذه التغيرات الواقعية. واذا كانت القواعد الحقوقية القديمة تمنع قسماً من المجتمع من بلوغ اهدافه الحيوية وتلبية حاجاته الاساسية، فإن هذا القسم سيدرك بحكم الضرورة وبسهولة كبيرة انها تشكل عقبة . إن وعي هذا الامر ليس أصعب بكثير من وعي صعوبة ارتداء حذاء ضيق او حمل سلاح ثقيل الا ان المسافة كبيرة بين ادراك الانسان ان يكون قاعدة من القواعد الحقوقية تشكل عقبة وبين التماسيح الواثني الى لغاء هذه القاعدة . بادىء الامر ، يحاول

الناس أن يخالوا عليها في كل حالة على حدة . تذكروا ماذا حدث في روسيا ، في
عائلات الفلاحين العديدة الافراد ، عندما أدى نشوء الرأسمالية الى ظهور مصادر
جديدة للرزق ، لم تكن متساوية لمختلف افراد الاسرة . لقد غدت آتذاك الحقوق
العائلية المرمية الاجراء ثقيلة الوطأة بالنسبة الى السعداء الذين كانوا يكسبون
أكثر من الآخرين . ولكنهم لم يصمموا على مناهضة العرف القديم فوراً وبسهولة
بل اكتفوا لفترة طويلة بالاحتياح عليه ، خافين جزءاً من مكاسبهم عن رب الاسرة
ولكن النظام الاقتصادي الجديد أخذ ينمو ، والنظام العائلي الهرم أخذ يتزعزع
شيئاً فشيئاً ، فصرح افراد الاسرة الذين كان يهمهم الناء هذا العرف يرفعون رؤسهم
على نحو متزايد ؛ بينما تكررت اجراءات التوزيع . وفي الاخير ، زال العرف القديم
وحل محله عرف جديد . تولد من الشروط الجديدة اي من العلاقات الواقعية
الجديدة او الاقتصاد الاجتماعي الجديد ،

عادة يكون وعي الناس لوضعهم متأخراً الى حد ما عن العلاقات الواقعية
الجديدة التي تكيف هذا الوضع وتعديله . إلا ان الوعي يتبع مع ذلك العلاقات الواقعية
واذا كان طموح البشر الواعي الى إلغاء المؤسسات القديمة وإقامة نظام حقوقي
جديد لا يزال ضيقاً ، فذلك لان اقتصاد المجتمع لم يهنئ بشكل كاف هذا النظام
الجديد . وبعبارة أخرى ، بخلاف التاريخ ، إن النقص في وضوح الوعي - « غلطات
تفكير لم يبلغ حداً كافياً من النضج » - و « الجهل » - لا يعني في أحيان
كثيرة سوى شيء واحد هو ما يجب ادراكه اي العلاقات الجديدة الاخذة في
التكون - لم يتم بعد بصورة كافية . وان جهلاً من هذا النوع (جهل وعدم
فهم ما لم تكتمل وجوده ، ما هو آخذ في التكون فقط) ليس إلا
جهلاً نسبياً .

وهناك نوع آخر من الجهل : الجهل بإزاء الطبيعة ؛ ويمكن تسميته جهلاً مطلقاً ، وقياسه سيطرة الطبيعة على الانسان . وبما ان نمو القوى المنتجة يعني ازدياد سيطرة الانسان على الطبيعة ، فان تزايد القوى المنتجة يسبب بالطبع تناقصاً في الجهل المطلق . إنه ظواهر الطبيعة التي لا يفهمها البشر والتي تخرج عن نطاق سلطتهم ، تولد مشى الخرافات في مرحلة معينة من التطور الاجتماعي ، وتختلط هذه الخرافات اختلاطاً وثيقاً بالمفاهيم الاخلاقية والحقوقية ، فتطبعها بلون خاص (١) . وخلال الصراع التناحري عن نمو العلاقات الواقعية بين الناس في عملية الانتاج الاجتماعية ، كثيراً ما يلعب الدين دوراً بالناً . إن المجددين والمحافظين يستنجدون بالآلهة ، ويضعون تحت رعايتهم هذه المؤسسة او تلك ، بل يعلنون ان هذه المؤسسات هي التعبير عن إرادة إلهية ، ومفهوم ان الاومينيد Euménides اللواتي كان يعتبرهن الاغريق في الماضي كحارسات لشرائع نظام الامومة لم يساعدن

(١) يقول كوفاليفسكي - وهو مؤرخ روسي ، يؤيد نظرية «العوامل» معتبراً ان العامل الرئيسي هو ازدياد السكان - في كتابه «القانون والعرف في القوقاز» :
 « ان قصر المعتقدات والخرافات الدينية عند البشاي يدفعنا الى الاعتقاد ان هذا الشعب تحت ستار الارثوذكسية الرسمية ، لا يزال حتى الان ، في مرحلة التطور التي سماها تايلور «التفكير الاحيائي» . وهذه المرحلة كما هو معلوم يراضها عادة خضوع الاخلاق الاجتماعية والحقوق خضوعاً تاماً الى الدين » (الجزء الثاني ص ٨٢) . والحال ، ليس للتفكير الاحيائي البدائي ، حسب تايلور ، أي تأثير على الاخلاق والحقوق . في تلك المرحلة من التطور ، «ليس هناك علاقة بين الاخلاق والدين ، او ان هذه العلاقة تبقى في حالة جنينية» . « ان العقيدة الاحيائية هتد القياثل الحمجية خالية بصورة تكاد تكون تامة من ذلك العنصر الاخلاقي الذي يشكل في نظر الانسان المتمدن جوهر كل دين عملي . . . ان القوانين الاخلاقية ارضها الخاصة » (تايلور والحضارة البدائية ، لندن ١٨٧١ ، الجزء الثاني ، ص ٣٢٦) . فن الاصح القول ان الخرافات الحديثة لا تختلط بالمفاهيم الاخلاقية والحقوقية الا في مرحلة عالية نسبياً من التطور الاجتماعي . ويؤسفنا كثيراً ان نسيق المجال لا يسمع لنا بان نبين كيف تعمل المادية الحديثة هذه الظاهرة . المؤلف

في شيء على بقائه ، كما لم تساعد ميرفا Minerve في شيء على تحقيق انتصار السلطة
الابوية التي كانت تعتبر المدافعة عن قضيتها؛ لقد كان الناس يضيعون جهودهم ووقتهم
مما في دعائهم للآلهة والاورثان. ولكن الجهل الذي كان يحيطهم يؤمنون بالاو مينيد
لم يكن يمنع المحافظين الاغريق من ادراك الواقع وهو ان النظام الحقوقي القديم (أو
بالاصح الحقوق العرفية القديمة) يضمن مصالحهم على نحو أفضل من أي نظام آخر
كما ان الخرافات والآمال المقنونة على مينرفا لم تكن تمنع المجددين من إدراك مساوي
نظام الاشياء القديمة .

ان الاديانك في جزيرة بوريو لم يتبادوا على قطع الحطب فرضاً تأخذ شكل
جرف ٧ . ولا أدخل الاوربيون هذا التجديد ، قامت السلطات المحلية بتحريره
شرعاً . (انظر تايلور : الحضارة البدائية ، باريس ١٨٧٦ ، الجزء الاول ص ١٢) .
وهذا دليل واضح على جهله فهل يعقل أن يحرم اسلوب يسهل العمل ؟ ومع ذلك
لتفكر بهذا الاجراء علنا نجد له ظروفاً مخوفة . ان حظر استخدام اساليب العمل
الاوربية كان بلا شك احد مظاهر النضال ضد النفوذ الاوربي الذي كان آخذاً
في تفويض نظام الاشياء الموجود . لقد كانت السلطات المحلية تشعر شعوراً غامضاً
بأنه سوف لن يبقى من هيبدا النظام حجر على حجر إذا ما أدخلت العادات
الاوربية . ولسبب مجله ، كانت هذه المادة بوجه خاص تذكرها طبيعة النفوذ
الاوربي الهدامة ، فحرمها شرعاً . ولاذا بالضبط كانت الفرضة المذكورة رمزاً
للتجديدات الخطرة في نظرهم ؟ ليس بوسعنا ان نحيب على ذلك جواباً مرضياً . فنحن
بجهل السبب الذي جعل الفرضة المذكورة ترتبط في ذهن اهل البلاد بفكرة
الخطر الذي كان يهدد نظام الاشياء القائم . وكل ما يسعنا تأكيده ، هو ان
مخاوف اهل البلاد كانت عامة تماماً . فالنفوذ الاوربي يشوه بسرعة وقوة اجراف

القبائل المنجية والبربرية ، ونحطها إحيانا .

يقول تايلور ان الدياتك كانوا مع شجيم لطريقة البيض ، يستخدمون هذه الطريقة حلقة حين ينتطعون . هاهو «الرياء» بيته يضاف الى الجهل . ولكن ما هو غيب ذلك كله بطبع ، لان اهل البلاد الذين كانوا يدركون فوائد الطريقة التي كانت في قطع الخلب كانوا يخشون الرأي العام وعقاب السلطات . فالحكمة الغريزية عند الحيوان العاقل كانت تنقد الاجراء الذي كانت وحدها مسؤولة عنه . وكانت محقة في انتقادها . فتحریم استخدام الطرق الاوربية لم يكن كفيلا بحصو النفوذ الاوربي واخطاره .

اذا استخدمنا عبارة لا بريولا ، يمكننا القول بهذا الشأن ان الدياتك قد اتخذوا اجراء غير مناسب وغير صالح . وتكون محقين في هذا القول . ويمكننا ان نضيف الى ملاحظة بريولا ، ان البشر كثيراً ما يتخذون مثل هذه الاجراءات غير المناسبة وغير الصالحة ، ولكن ماذا يجب علينا ان نستنتج فقط انه يجب علينا ان نتحري ما اذا كان لا توجد علاقة بين مثل هذه الاخطاء من جهة ، وبين طابع العلاقات الاجتماعية او درجة تطورها من جهة ثانية . هذه العلاقة موجودة بلا ادنى ريب . ويقول لا بريولا ان الجهل يمكن تفسيره ايضاً . ونحن نقول ان تفسيره ليس يمكننا فقط ، بل هو ضروري ايضاً ، هذا اذا كان علم الاجتماع قابلاً لان يصبح علماً دقيقاً . واذا كان من الممكن تفسير «الجهل باسبابه الاجتماعية» فلا جدوى من اللجوء اليه ، ولا فائدة من القول انه يعلل كون التاريخ قد اتبع هذا الطريق وليس طريقاً آخر . ليس الجهل علا ذلك ، انما الاسباب الاجتماعية

التي ولدت هنا الجهل واعطته مظهراً او طابعاً معيناً . ولماذا تقتصرون ، والحالة
هذه ، على الاستنجاد بالجهل الذي لا يضر شيئاً ؟ فنظر المفهوم العـامـي
لتاريخ ان الباحث الذي يستنجد بالجهل انما يدلل بذلك على جهله
بالذات .

« الرمزية » . التقاليد .

كل قاعدة حقوقية وضعية تدافع عن مصلحة معينة . من أين تأتي المصالح ؟ هل هي نتاج الارادة والوعي الانساني ؟ كلا، انها تصدر عن العلاقات الاقتصادية بين الناس . ومتى وجدت هذه المصالح ، فانها تنعكس بشكل او آخر في وعي الناس ، ذلك لانه لا بد للانسان من ان يبي مصلحة معينة كي يدافع عنها . وبالتالي، يمكن ويجب اعتبار كل نظام حقوقي وضعي كنتاج للوعي (١) ليس وعي الناس هو الذي يخلق المصالح التي تدافع عنها القوانين . وبالتالي فهو لا يحدد محتوى القوانين . ولكن حالة الوعي الاجتماعي (السيكولوجيا الاجتماعية) هي التي تحدد،

(١) ليست الحقوق ، كالقوى الطبيعية ، شيئا موجودا بصورة مستقلة عن نشاط الانسان . . . بل بالعكس ، انها قاعدة يقيها البشر والبشر . وليس ذا شأن كبير ، في هذا المضمار ، ان يكون الانسان في نشاطه خاضعا لقانون السبية او ان تكون افعاله حرة كيفية . فبشكل او آخر ، بحكم قانون السبية او قانون الحرية . يتشكل القانون الحقوقي ليس خارج نشاط الانسان ، بل بفضل هذا النشاط فحسب وعن طريقه . (كوركوفوف : محاضرات عن نظرية الحقوق العامة ، بطرسبرغ ، ص ٢٧٩) . هذا صحيح تماما ، ولكنه مصاغ بشكل سيء . ولكن السيد كوركوفوف نحي ان يضيف ان المصالح التي تدافع عنها الحقوق لم « يخلقها البشر للبشر » ؛ بل تقررها للعلاقات التي تقوم بين الناس في عملية الاتاج الاجتماعية . — المؤلف —

كل عهد من العهود ، الشكل الذي يتخذه في دماغ البشر انعكاس هذه المصلحة
او تلك . وإذا لم نأخذ حالة الوعي الاجتماعي بعين الاعتبار يكون من المحال تفسير
تاريخ الحقوق .

في هذا التاريخ ، ينبغي دائماً ان نميز بتأن بين الشكل و المضمون . وفيما
يتعلق بالشكل ، تخضع الحقوق ككل ايدولوجية لتأثير الايدولوجيات الاخرى ،
او على الاقل ، لتأثير قسم منها : المعتقدات الدينية ، المفاهيم الفلسفية الخ . .
وهذا التأثير يجعل من الصعب واحياناً من الصعب جداً - ادراك العلاقة
الموجودة بين مفاهيم الناس الحقوقية وعلاقتهم في عملية الانتاج الاجتماعية .
ولكن هذا ليس الا نصف - مصيبة (١) . اما الصعوبة الحقيقية فهي ان كل
ايدولوجية تخضع لتأثير الايدولوجيات الاخرى بصورة شديدة التفاوت
في مراحل التطور الاجتماعي المختلفة هكذا في مصر القديمة وجزئياً في روما ،
كانت الحقوق تخضع للدين . وفي الازمنة الحديثة خضع تطور الحقوق (من حيث
شكلها ، يجب ان نكرر ذلك وان نذكره جيداً) الى تأثير الفلسفة البالغة القوة .
وقد توجب على الفلسفة ، في سبيل ابعاد نفوذ الدين عن الحقوق وابداله بنفوذها ،
ان تخوض نضالاً مستعزلاً . ولم يكن هذا النضال الا انعكاساً ايدولوجياً لنضال
الطبقة الثالثة الاجتماعي ضد الاكليروس . غير انه كان عقبة كبيرة تحول دون

(١) ولكنه يلحق ضرراً كبيراً بمؤلفات مثل كتاب كوفاليفسكي « القانون والعرف
في القوقاس » . كثيراً ما يعتبر مؤلف الحقوق نتاجاً للافكار الدينية . كان يجدر به
ان يتبع في بحثه سبيلاً آخر ، فينظر الى المعتقدات الدينية والمؤسسات الحقوقية من
شعوب القوقاس على انها نتاج علاقاتهم الاجتماعية في عملية الانتاج ، وبعد تبيان تأثير
ايدولوجية على اخرى ، يتحرى السبب الذي وحده يفسر هذا التأثير : لقد كان على
السيد كوفاليفسكي ان يسلك هذا الطريق لا سيما وانه يؤكد في مؤلفات اخرى وجودة
علاقة السبب بالنتيجة بين اساليب الانتاج والقواعد الحقوقية . المؤلف -

صياغة أفكار سديدة عن أصل المؤسسات الحقوقية ومنشئها؛ فقد كانت هذه المؤسسات، من جراء هذا الصراع، تبدو بشكل بدهي واضح كأنها نتائج صراع بين مذهبين مخبرين. ومن نافذة القول إن لابيولا بشكل عام يفهم تماماً ماهي العلاقة الراقية التي تخفي وراء هذا الصراع بين المفاهيم. ولكنه في بعض الأحوال الخاصة، يستسلم لابيولا المادي لصعوبة المسئلة، ويستقدمنا الاقتصار على الاستنباط بالجهل أو بقوة التقاليد، كما رأينا سابقاً. وفضلاً عن ذلك، فهو يعتبر «الرمزية» السبب الأخير الذي يفسر عدداً كبيراً من الاعراف.

أجل، إن الرمزية «عامل» لا يمكن إهماله في تاريخ بعض الأيديولوجيات. ولكن لا يجوز اعتباره السبب الأخير لبعض الاعراف. اليكم مثلاً على ذلك -عند البشاف، وهم من قبائل القوقاس، تقص المرأة صغيرتها عندما يموت أخوها، وليس عندما يموت زوجها. إن قص الصغيرة في هذه الحال هو فعل رمزي ينوب عن عرف أكثر قدماً كان يفرض على المرأة أن تتحرق على قبر الميت. ولكن لماذا هي تتحرق على قبر الأخ لا على قبر الزوج؟ يقول السيد كوفاليفسكي:

« لا بد أن نرى في ذلك بقية من العهد القديم حين كان القريب الأكبر سناً من جهة الأم رئيس الجماعة التي يوحدتها انتمائها الحقيقي أو الوهمي إلى جد واحد » (القانون والعرف في القوقاس).

ينجم عن ذلك أن الأفعال الرمزية لا يمكن فهمها إلا عندما نترك معنى وأصل العلاقات التي ترمز إليها. ومن أين تأتي هذه العلاقات؟ من البدهي أننا سوف لا نجد الجواب على هذا السؤال في هذه الأفعال الرمزية نفسها، رغم أنها تستطيع أحياناً أن تعطي بعض الدلائل المفيدة. إن أصل العرف الرمزي المذكور الذي يقضي بقص الصغيرة على قبر الأخ يفسر بتاريخ العائلة، هذا التاريخ الذي يفسر

بلوره بتاريخ التطور الاقتصادي .

والحال ، لقد استمر هذا الطقس بعد زوال اشكال علاقات القرابي التي ينبع منها . وفي ذلك مثل عن تأثير التقاليد الذي يشير اليه لابرولا في كتابه ، ولكن التقاليد ليس بوسعها ان تحفظ الا ما هو موجود . وهي لا تفسر اصل طقس من الطقوس او شكل من الاشكال ولا تفسر بقاءه . إن قوة التقاليد قوة عطالة . وفي تاريخ الايديولوجيات ، كثيرا ما يضطر الباحث الى التساؤل عن سبب بقاء طقس او عرف ما على الرغم من انقراض العلاقات التي ولدته ، وزوال اعراف وطقوس اخرى بمثابة تولدت من نفس العلاقات . وهذا يعود الى التساؤل عن سبب كون اثر العلاقات الجديدة الهدام قد وفر هذا الطقس او العرف ، في حين انه قضى على غيره . والاجابة على هذا السؤال بالاجراء الى قوة التقاليد يعني الاقتصار على ترداد السؤال بشكل جواب . ولكن ما العمل في هذه الحال ؟ التوجه شطر السيكولوجيا الاجتماعية .

إن الاعراف القديمة يزول والطقوس القديمة تخرق عندما تقوم علاقات جديدة بين الناس . ويترجم نضال الاعراف والطقوس الجديدة ضد القديمة عن صراع المصالح الاجتماعية ، ليس من عرف او طقس رمزي مأخوذة في ذاته يستطيع التأثير على تطور العلاقات الجديدة ، في اتجاه موجب او سالب . واذا كان المحافظون يدافعون بحماسة عن الاعراف القديمة فذلك لان النظام الاجتماعي الذي يناسبهم ويمز عليهم ويألفونه يتصل في ذهنهم اتصالاً وثيقاً بهذه الاعراف . واذا كان المجددون يهضمون هذه الاعراف ويستخرون منها ، فذلك لانها تتصل في ذهنهم بالعلاقات الاجتماعية التي تضايقهم وتزعجهم وتضر بمصالحهم . فالقضية هنا ليست إلهاماً او ارتباط بين الافكار . عندما ترى ان طقساً ما قد استمر بعد انقراض العلاقات التي ولدته بل وبعد زوال الطقوس المتصلة به والتي تولدت من نفس العلاقات ، يجب ان تستنتج ان هذا الطقس لم يكن يرتبطه في ذهن المجددين ،

بالماضي البيض ، بنفس قوة ارتباط العنقود الأخرى به . ولماذا لم يكن يرتبط
بهنه القوة ؟ قد يسهل الجواب على هذا السؤال في بعض الأحيان ، وقد يستحيل
في أحيان أخرى ، نظراً لفقدان المعطيات السيكولوجية الكافية . ولكن حتى في
الحالات المتشعبة الجواب ، في الحالة الراهنة لمارفا على الأقل ، ينبغي ان نتذكر
جيداً ان المشكلة ليست هنا قوة التعاليد ، بل بعض الارتباطات الفكرية النابعة
من العلاقات الواقعية بين الناس في المجتمع .

ان تاريخ الايديولوجيات يعال الى حد بعيد بتكون وتبدل وزوال
ارتباطات الافكار ، تحت تأثير تكون وتبدل وزوال بعض ترتيبات القوى
الاجتماعية . إن لا يريولا لم يول هذا الجانب من المسألة الانتباه الذي يستحقه .
وهذا يبين جيداً من مفهومه للفلسفة .

الفلسفة

يرى لابرولا ان الفلسفة في تطورهما التاريخي تتبادل جزئياً مع اللاهوت ،
 وترجم جزئياً عن تطور الفكر الانساني في صلته مع الاشياء التي تدخل في
 حقل تجربتنا . وهي بقدر ما تتميز عن اللاهوت ، تتناول مسائل يسمى الي حلها
 البحث العلمي بالمعنى الأصلي . وفي عملها هذا ، فهي إما ان تحاول استباق العلم
 بتقديم حلولها التخمينية الخاصة او ان تتناول الحلول التي اكتشفها العلم ، فتلخصها
 وتخصمها لصياغة منطقية . هذا صحيح بالطبع ، ولكنه ليس كل الحقيقة .
 لتأخذ الفلسفة الحديثة مثلاً . بالنسبة الى ديكارت ويكون (١) ، كانت
 مهمة الفلسفة الأولى مضاعفة المعارف التي تقدمها العلوم الطبيعية ، وذلك لزيادة
 سلطة الانسان على الطبيعة ، في عصرها كانت الفلسفة اذن تعالج مسائل هي
 موضوع علوم الطبيعة . غير ان هذا التصور ليس صحيحاً تمام الصحة . فحالة
 العلوم الطبيعية في عصر ديكارت لانفسر موقفه في بعض المسائل الفلسفية كسألة

١ - ديكارت : من كبار الفلاسفة والعلماء الفرنسيين ، في النصف الاول من القرن السابع
 عشر ، مؤسس الهندسة التحليلية ، واضع كتاب « رسالة في المنهج » حيث يوضح
 طريقة العلوم

يكون : من كبار الفلاسفة الانكليز . في مطلع القرن السابع عشر ، صاغ قواعد
 الطريقة التجريبية - الاستقرائية .
 - المترجم -

الروح مثلاً، لكن هذا الموقف يفسر تماماً بلوضع الاجتماعي الذي كان يسود فرنسا في عصره. فديكارت يفصل بمنتهى الشدة ميدان الايمان عن ميدان العقل. و فلسفته لا تعارض الكاثوليكية ، بل على العكس ، هي تسمى لاسناد بعض عقائدها الى حجاج جديدة ، وهي في ذلك تعبر تعبيراً جيداً عن حالة الفرنسيين الذهنية آنذاك فبعد الاضطرابات الطويلة الدامية التي حصلت في القرن السادس عشر، كانت فرنسا تنوق الى انسلم والنظام - وكان هذا الطموح يتجلى في الميدان السياسي يميلها الى الملكية المطلقة، وفي ميدان الفكر بعض التسامح الديني وبالرغبة في تجنب المشكلات التي كانت تذكر بالحرب الاهلية الحديثة العهد؛ وقد كانت المسائل الدينية في عداد هذه المشكلات ، وتوخياً لعدم مس هذه المسائل، كان ينبغي فصل وتحديد كل من ميداني الايمان والعقل . وهذا ما فعله ديكارت، كما قلنا سابقاً . ولكن ذلك لم يكن كافياً . فقد كان ينبغي، لمصلحة السلام الاجتماعي، أن تلمن الفلسفة اعترافها الصريح بحقيقة العقائد الدينية . وهذا أيضاً ما فعله ديكارت . ولهذا السبب فقد لاقى مذهبه الذي كان مذهباً مادياً في ثلاثة أرباعه على الاقل استقبلاً حسناً من قبل كثير من رجال الكنيسة .

ان مادية لامتوري تنبع بصورة منطقية من فلسفة ديكارت ولكنه كان يمكن ايضاً استخلاص استنتاجات مثالية من هذه الفلسفة . وان لم يفعل القرفسيون ذلك ، فمرد الامر الى سبب اجتماعي معين هو عداة الطبقة الثالثة للاكليروس في فرنسا في القرن الثامن عشر . وامن نشأت فلسفة ديكارت من الميل الى السلم الاجتماعي ، فقد كانت مادية القرن الثامن عشر تنذر بهزات اجتماعية جديدة . نرى من ذلك ان تطور الفكر الفلسفي في فرنسا لا يعطل فقط بتطور علوم الطبيعة ، بل ايضاً بما لتطور العلاقات الاجتماعية من تأثير مباشر ، وهذا

يظهر على نحو افضل إذا فحصناه بانقباضه تاريخ الفلسفة الفرنسية من وجهة نظر اخرى .

انا تعلم ان المهمة الاساسية للفلسفة كانت بالنسبة لديكارت زيادة سلطة الانسان على الطبيعة . بينما تعتبر المادية الفرنسية في القرن الثامن عشر ان واجها الاول هو ابدال بعض المفاهيم القديمة بمفاهيم جديدة تكون اساساً لقيام العلاقات الاجتماعية الطبيعية . فالماديون الفرنسيون يكادون لا يهتمون ابداً بقضية زيادة قوى المجتمع المنتجة . ان الفرق كبير ، فما هو مصدره ؟

في القرن الثامن عشر ، كان تطور القوى المنتجة في فرنسا يصطدم بقبة متينة هي علاقات الانتاج الاجتماعية البالية ، والمؤسسات الاجتماعية الصيقة . لقد كان البناء هذه المؤسسات ضرورياً تماماً لتطور القوى المنتجة ، ولم تكن الحركة الاجتماعية في فرنسا آنذاك تعني شيئاً آخر . وفي الفلسفة ، كانت ضرورة هذا البناء تتجلى في النضال ضد المفاهيم المجردة الهرمة ، التي نشأت على اساس علاقات انتاج هرمة هي أيضاً .

أما في عصر ديكارت ، فهذه العلاقات لم تكن بالية على الاطلاق ، ولم تكن لتعيق نمو القوى المنتجة ، بل كانت تساعد كما كانت تساعد ايضاً المؤسسات الاجتماعية التي تولدت منها . ولهذا السبب لم يكن هنالك من يفكر بإزالتها ، بل كانت الفلسفة ترسم لنفسها مهمة مباشرة هي زيادة القوى المنتجة وهي المهمة العملية للمجتمع الاساسية البرجوازي الآخذ في النشوء

★ ★ ★

تلك هي اعتراضاتنا على لايبولز . ولكن لعلها غير ضرورية . ربما لم يقص لايبولز سوى الوضوح ، وامله متفق معنا من حيث الجوهر ، ذلك سيسعدنا . فما

يسر له الإنسان ان يلاحظ ان رجالاً اذكياء متفقون معه على نفس الرأي .
والا سيؤسفنا ان نكرر ان هذا الرجل الذي قد اخطأ . وفي قولنا هذا ،
لعلنا تقدم مرة أخرى للمذاتين الهرمين الصغار (١) موضوعاً ليسخروا منه ويرددوا
انه من الصعب حقاً التمييز بين الانصار الحقيقيين للمفهوم المادي للتاريخ ومن ليسوا
انصاراً حقيقيين له . ولكننا سننجيهم « انهم يهزؤون من انفسهم » فكل من ادرك
جوهر مذهب من المذاهب الفلسفية لا يصعب عليه ان يفرق بين اتباعه الصادقين
والكاذبين . ولو كلف السادة الذائبون انفسهم عناء التفكير قليلا في مدلول التفسير
المادي للتاريخ لادر كوا تماماً من هم و الابعاء الحقيقيون ، ومن هم الذين يحملون
هذا الاسم العظيم خطأ . ولكن بما انهم لم ولن يكلفوا انفسهم هذا العناء ، فسوف
يظلون دائماً على حيرة من امرهم . هذا هو نصيب جميع المتخطفين ، جميع من هجروا
جيش التقدم العامل . وبشأن التقدم ، ألا تذكروا ايها القارئ الزمن الذي كان
فيه « الميتافيزيقيون » موضع الشتم (٢) ، والذي كان يجري فيه تدريس الفلسفة
حسب لوس (٣) ، واحياناً حسب كتاب الحقوق الجزائية ، مؤلفه السيد سياسوفيتش
الذي كان فيه قد تمخيل للقراء (القدسيتين) صينياً بسيطة في تناول الجميع وحتى
الأطفال الصغار ؟

١ - التلميحات الواردة في هذه الفقرة يقصد بها ميخائيلوفسكي . - المترجم -

٢ - يقصد بليخانوف بالميتافيزيقيين انصار الفلسفة المادية . فالفلسفة المادية البرجوازية

المباصرة (الوضعية) ، فلسفة الظواهر ، الوجودية ، فلسفة المنافع المعارضة ، الذاتية ، الرينية . . .)
تصح نفسها حقوقه المادية والمثالية ، وتتهم الماديين بالميتافيزيكية لاهتمامهم بحراسة جوهر
الاشياء واسباب الحوادث واعمالهم بالقوانين العامة للطبيعة والمجتمع . ان بليخانوف يهتمك بنا
على هذه المزاعم والافتراءات . - المترجم -

٣ - لوس جورج هنري (١٨١٧-١٨٧٨) : فيلسوف إنكليزي من المدرسة الوضعية ،

مؤلف كتابه عن تاريخ الفلسفة . - المترجم -

بالزمن السعيد ! لقد زال ، لقد تبدد كال دخان . وغادت « الميتافيزياء » من جديد تجذب الاذهان في روسيا . لقد وضع لوس جانباً والجميع يهملون صيغ التقدم الذائفة الصيت . وعلماء الاجتماع اتفهم - بعد ان اصبحوا رجالاً معززين مكرمين نادراً ما يتذكرون هذه الصيغ . وملاحظ مثلاً ان احداً لم يفكر بها في الوقت الذي كنا في اشد الحاجة اليها ، على ما يبدو ، أي حين كان يدور عندنا النقاش حول امكانية ترك طريق الرأسمالية لصالح طريق الوهم والخيال . ان الخياليين عندنا كانوا يحملون اسم رجل يدعي انه من انصار المادية الليالكتية الحديثة رغم كونه مدافعاً عن فكرة «انتاج شعبي» خيالي صرف (١) . هكذا اصبحت المادية الليالكتية في ايدي الخياليين السلاح الوحيد الذي يستحق الانتباه ، لذلك فمن المفيد الى ابعد حد ان نرى كيف ينظر انصار المفهوم المادي للتاريخ الى «التقدم» . صحيح ان صحافتنا قد تعرضت لهذه القضية مرات عديدة . ولكن المفهوم المادي الحديث للتقدم قليل الوضوح بالنسبة للكثيرين ، هذا اولاً ، وثانياً ان لابيولا يشرحه بامثلة انتقاها انتقاء جيداً ويعملها باعتبارات صائبة جداً . بالرغم انه لسوء الحظ يصره بصورة منتظمة وفي كل مدهاء واتساعه ان اعتبارات لابيولا تحتاج الى ان تتم . ونحن نأمل ان تقبل ذلك متى وجدنا متسعاً من الوقت . والآن لنتته ، لقد آن الاوان .

قبل ان نضع القلم ، نرجو القاريء مرة أخرى ان يتذكر جيداً ان المادية المسماة «اقتصادية» التي يوجه اليها السادة الشعيون والذاتيون اعراضاتهم - وهي اعتراضات غير مقنعة على كل حال - لا تمت بصلة كبيرة الى المفهوم المادي

١ - بلبخانوف يقصد الشمي المعروف نيكولاي - اون (دانيلسون) الذي اتحل لقب «ماركسي» بمجرد اعلانه انه يؤيد «نظرية ماركس الاقتصادية» .

المراجع

الحديث للتاريخ وإذا أخذنا بوجه نظر العوامل يكون المجتمع الانساني كعبه
ثقل يجذبه « قوي ، مختلفة — الاخلاق ، الحقوق ، الاقتصاد . الخ ... — كلا
منهما على طريق التاريخ ولكن اذا اخذنا بوجه نظر المفهوم المادي الحديث للتاريخ
كل شيء . إن « العوامل » التاريخية تظهر كمجردات بسيطة ، وعندما يتبدد
سببها يصبح واضحاً ان البشر لا يصنعون تواريخ متميزة : تاريخ الحقوق وتاريخ
الاخلاق وتاريخ الفلسفة الخ... — بل تاريخاً واحداً هو تاريخ علاقاتهم الاجتماعية
التي تكفيها في كل وقت حالة القوى المنتجة . وما يسمى ايدولوجيات ليس الا
انعكاساً متنوع الاشكال في دماغ البشر لهذا التاريخ الواحد الذي لا يتجزأ .

الفهرس

٥	<u>فلسفة التاريخ</u>
٨	١ - المفهوم اللاهوتي للتاريخ
١٦	٢ - المفهوم المثالي للتاريخ
٢٦	٣ - رد الفعل بعد الثورة الفرنسية
٢٨	٤ - فلسفة التاريخ عند سان - سيمون
٣٠	٥ - أوغستين قيري ومبنيه
٣٨	٦ - فلسفة التاريخ عند شيلتغ
٤٢	٧ - فلسفة التاريخ عند هينغل
٤٥	٨ - المفهوم الماركسي للتاريخ
٥٣	<u>المفهوم المادي للتاريخ</u>
٥٥	١ - «المادية الاقتصادية»
٥٩	٢ - نظرية العوامل
٦٤	٣ - المفهوم العلمي للمجتمع
٦٩	٤ - موضوع العلم التاريخي
٧٣	٥ - الاقتصاد - السيكولوجيا الاجتماعية
٧٦	٦ - نشوء الدولة - مفهوم العرق
٨٠	٧ - مفهوم العرق - مزاج الشعب
٨٣	٨ - الخطأ والجهل
٨٧	٩ - الحقوق والدين
٩٢	١٠ - «الرمزية» - التقاليد
٩٢	١١ - الفلسفة

Bibliotheca Alexandrina



0647250

التمن ١٠ بورس